

مختارَات المنفَلوطي

المكتبة العلمية الجديدة
بَيروت

مختارات المنفلوطي

مختارات المنفلوطي

لفقيد الأدب

مصطفى لطفي المنفلوطي

دار المطبوعات العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

المقـــدمة

نشاته وحياتـــه

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ ــ ١٨٧٦ م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث اهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغـــير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشيء الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقـة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربـــه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقـــه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغي في جريـــدة (المؤيد) الوسيلة والنجح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربيـــاً لها . ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هـــذا

المنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره .

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم في بطء ، سليم الفكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللسان في تحفظ ؛ وهذه الخلال تظهر صاحبها الناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

اسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أديباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعاً انشأه الطبع القوي على غير مثال .

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأ كنشأته في جيل كجيله . وسر النبوغ في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما

صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها . لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبّد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجيني (الفضيلة) لبرنار دي سان بيير، وسيرانودبر جراك (الشاعر) لادمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى تراء الأدب العربي ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

عن كتاب تاريخ الأدب العربي
حسن الزيات

آثار أقلامه

الهاويه

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامــاً واحداً مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحــدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بهـا التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فاعوزني ذلك حتى عرفت فلاناً منذ ثماني عشرة عاماً فعرفت امرأ ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتهـا فيه ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحــد من قبله وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرض إلي من حوادث الدهر مـا أزعجني عن مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير آسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت فحزنت لذلك حزنــاً

شديداً وذهبت بي الظنون في شانـــه كل مذهب إلا مذهباً واحداً وهو الشك في صدقه ووفائــه ، وكنت كلما هممت بالمسير اليه لتعرّف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شان حتى شان نفسي فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد سبعة أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضهـا أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرتـه متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيــه السعادة في ألوانهـــا المختلفة وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ثم زرته اليوم فخيل إليّ انني أمام مقبرة مظلمة ساكتة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبهـا شخص ولا يلمع في أرجائها مصباح.فظننت اني أخطات المنزل الذي أريده أو أنني بـين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته فـــلم يجبني أحـد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه [١] نوراً متحركاً ثم لم يلبث ان أنفرج لي عن وجـــه غلام صغير في اسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً فتاملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهـه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه، فسالته عن أبيه فاشار إليّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة مغبرة شعثاء بالية المقاعد والأستار لولا نقوش أعرفها من قبل لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر

---

١ ــ خصاص الباب خرقه .

اليد ما عرفت أنها قاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً، ثم جرى بيني وبينه حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت منه أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ، ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بوالده ، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف ماتاه [1] ثم التفت فاذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على الباب فحييتها فحيتني ثم قالت لي : هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك قلت لا فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام قالت ليتك لم تفارقه فقد كنت عصمة للرجل فيه وحمى له من كل سوء فما هو إلا ان فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان وكان فتى كما تعلمه غريراً فما زالت تغريه بالشر وتزخرفه له حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت وأي شر تريدين يا سيدتي ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟ قالت سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول .

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فقد استحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم إلا في الفينة [2] وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي ، ولقد اغتبطت في

١ — المأتى الوجه الذي يأتي منه الشيء .
٢ — الفينة الساعة والحين .

مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها ذلك الرئيس والمنزلة التي نزلها من نفسه أرجو له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني واغفاله النظر في شأن بيته وشؤون أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم الذي هو قدوة مرؤوسيه في الخير إن سلك طريق الخير وفي الشر إن سلك طريق الشر قد قاد زوجي الفتى الضعيف المسكين إلى شر الطريقتين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وأنه ما كان يتخذه صديقاً كما كنت أظن بل كان يتخذه نديماً ، فتوسلت اليه بكل عزيز عليه وسكبت بين يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب فلم أعجب لذلك لأني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف برأسها لا بد له من أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة الشراب ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون سكيراً مقامراً مستهتراً في حالتيه لا يتجمل ولا يتستر ولا يتقي عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذر ، وبزوجته أن يتجهم[1]

---

[1] — تجهم له استقبله بوجه كريه .

لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً يضرب أولاده كلما دنوا منه ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ولا يزالون يشربون ويقصفون[1] حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجون ويرقصون ويملأون الجو صراخاً وهتافاً ثم يتعادون[2] بعضهم وراء بعض في الابهاء[3] والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حاول بعضهم العبث بي أو نزع رداثي عن وجهي على مرأى منه ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ، فأفر من بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا أزار ولا خمار غير أزار الظلام وخماره حتى أصل إلى بيت امرأة من جاراتي فاقضي عندها بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها فامسكت عن الحديث هنيهة وأطرقت برأسها فعلمت انها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ثم رفعت رأسها وعادت إلى حديثها تقول .

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لا بد له أن يستدين ففعل فاثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ولم يبق في يده غير راتبه

---

١ — قصف الرجل أقام في أكل وشرب ولهو .

٢ — من العدو وهو الجري .

٣ — الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت .

الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه لأنـــه لا يملكه إلا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك الدائنين ، أو غنيمة المقامرين .

هذا ما صنعت يد الدهر به أما ما صنعت بي وبأولادي فقد مر على آخر حلية بعتهـــا من حلاى عام كامل وهــــا هي حوانيت المرابين والمسترهنين ملآى بملابسي وأدوات بيتي وآثاثه ولولا رجـــل من ذوي قرباي رقيق الحال[1] يعود عليّ من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكت وهلك أولادي جوعاً ، فلعلك تستطيـع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك من الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه للمنزلة التي تنزلها من نفسه على ما عجز عنه الناس جميعاً فانـك ان فعلت أحسنت اليه والينا احساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم حيتني ومضت لسبيلهـا فسالت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيهـا في المنزل فقال أنك تراه في الصباح قبل ذهابـــه إلى الديوان فانصرفت لشأني وقـد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتىانقضى الليل وما كاد ينقضي ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذيكنت بالأمس أسعد الناس به ولا أعلم ما مصير أمرى معه غـــداً وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد راهن فيـــه بجميـع ما يملك فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة واحدة أسعد الناسأم أشقاهم.

* * *

١ ــ رقة الحال كنايه عن الفقر .

الآن عرفت ان الوجوه مرايا [1] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ، فقد فارقت الرجل منذ سبع سنين فانستني الأيام صورته ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء "لامع ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس فوق صفحتها فلما رأيته الآن ولم أرَ أمام عيني تلك الغلالة البيضاء من الضياء خيل إلى أني أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلاً غير الذي أعرفه من قبل .

لم أرَ أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فما ضاحكا تموج فيه ابتسامة لامعة بل رأيت مكانه رجلاً شقياً منكوباً قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه وجمدت نظراته وتهدل عارضاه وتجعد جبينه واستشرف [2] عاتقاه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب فكانت أول كلمة قلتها له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك ، وكأنما ألم بما في نفسي وعلم اني قد علمت من أمره كل شيء فاطرق برأسه اطراق من يرى ان باطن الأرض خير له من ظاهرها ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له .

والله ما أدري ماذا أقول لك ! أأعظك وقد كنت واعظي بالأمس ونجم هداي الذي استنير به في ظلمات حياتي ، أم أدلك على ما أوجب الله عليك في نفسك وفي أهلك ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ولا تصل يدي إلى

---

١ — المرايا جمع مرآة .

٢ — استشرف الشيء ارتفع .

شاردة تقصر يدك عن نيلها ، أم استرحمك لاطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق رحمة بالبعداء ، فأحرى ان يخفق رحمة بالأقرباء .

ان هذه الحياة التي نحياها يا سيدي انما يلجأ اليها الهمل العاطلون الذي لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً حتى يأتيهم الموت فيخلصهم من عارهم وشقائهم وما أنت بواحد منهم .

انك تمشي يا سيدي في طريق التبر وما أنت بناقم على الدنيا ولا متبرم بها [1] فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ؟

عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لديك مقام ما خسرت من حياتك الاولى ، ولكنك تعلم انك كنت غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فاصبحت سقياً ، وشريفاً فاصبحت وضيعاً ، فان كنت ترى بعد ذلك انك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء .

ان كل ما يعنيك من حياتك هذه ان تطلب فيها الموت فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيها عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ؟ وما يعاقبك الله على الأخرى باكثر مما يعاقبك على الأولى .

حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم اليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا فهات يدك وعاهدني على ان تكون

---

١ - تبرم بالأمر سئمه وضجر منه .

لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس فقد كنا سعداء قبل ان نفترق ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن قد التقينا فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي اليه فراعني انه لم يحرك يده فقلت له ما لك لا تمد يدك إلي ؟ فاستعبر باكياً وقال لأني لا أحب أن أكون كاذباً ولا حانثاً قلت وما يمنعك من الوفاء ؟ قال يمنعني منه اني رجل شقي لا حظ لي في سعادة السعداء، قلت قد استطعت بالأمس أن تكون شقياً فلم لا تستطيع اليوم ان تكون سعيداً؟ قال لأن السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا حيلة لي في الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات كاس الحياة المريرة فلا بد لي أن اشربها حتى ثمالتها ، ولا شيء يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، وهو ان لا أكون قد شربت الكاس الأولى قبل اليوم ، قلت ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فاذا أنت من الناجحين ، قال أن العزيمة آثر من آثار الارادة وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري لا ارادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء وابك على صديقك القديم منذ اليوم ان كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين .

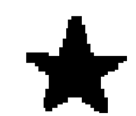
ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني في مكاني دون ان يجبني بكلمة واحدة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

★

لم يستطع رئيس الديوان ان يجامل نديه بالأمس زمناً طويلاً فاقصاه عن مجلسه استثقالاً له ، ثم عزله من وظيفته استنكاراً لعمله ؛ ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد ان يمهل فيه مالكه القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فاصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فان رايته ذاهباً توارى عن عيني حياء وخجلاً وان رايته عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه مـــا سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، وحلماً من الأحلام السارية يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الخروق والرقاع ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بملتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الحانة فلا يزال يشرب ويتزيد حتى يعود إلى ما كان عليه ..

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية .



عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبل التي يركبهـا كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها فكانت لا تراهما بعد ذلك إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل عنه فيها عيون الشرطة وقلما تغفل عنه ، فاصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف اليها من حين إلى حين فاذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيهـا في اعطاف العيش الناعم والنعمة السابقـة بين زوج محب كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وضياء ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً والمخدوم خادماً والعزيز الكريم ذليلاً مهانـاً وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلئي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ثم استحال بعـد انتثاره إلى حصيات ملقيات على سطح الغـبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكي بكاء الواله في أثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الانسان الذي كان سبباً في شقائه وشقاء ولديها ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو مفارقته لأنها امرأة شريفة والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر اليه نظر الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف

عليه وتسهر بجانبه ان كان مريضاً وتأسو جراحه ان عاد جريحاً ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانته ان لم يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته هائجاً ثائراً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد لها بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما تسكن به نفسه رحمةً وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقـــال حتى أضاف اليها ثقلاً جديداً فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة: رحماك اللهم فقد امتلأت الكاس حتى ما تسع قطرة واحدة ، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبـــة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فاعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها لأن البلد الذي لا تستحي أطباؤه ان يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن ان يوجد فيهـــا طبيب محسن ولا متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى ادركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة

بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة فرابـه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى تملأ قلبه وبدأ صوابـه يعود اليه شيئاً فشيئاً فاكب عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويدنو منها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت ينظر اليها بعينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفاً وذعراً فوطىء في تراجعه صدر ابنته فأنت أنة مؤلمـــة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال واشقاآه وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطريق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل مـــا يجد في طريقه من انسان أو حيوان ويصيح ابنتي ! زوجتي ! هلموا إلي ! أدركوني ! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخـــذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله يبكونـــه لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم يرون في وجهه آية شقائـه وكذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع مـــا بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوارحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء ، واأسفاه عليه وعليهم جميعاً حتى الموت .

البعث

اليوم الاول

نبا بي مضجعي ليلة ، لم تزل بي والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها . فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً . فلما تقضى الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء

(*) كان السيد مصطفى المنفلوطي الكاتب الكبير والشاعر القدير شرع في أن يترجم الفيلسوف الشهير أبي العلاء المعري ترجمة يلم فيها بأخلاقه ومذاهبه ويبين مناهج فلسفته ومناحيه في اعتقاداته فكتب ثلاث رسائل في ذلك تحت عنوان « البعث » وكان يريد ان يجعله اثنين وثمانين يوماً بعدد سني أبي العلاء . ولكن حال دون اتمامها كثرة أعماله فعسى ان يتسع له صدر الزمن حتى يتمم كتاب البعث فيكون قد أبر هذه اللغة بابراز مثل هذا الكتاب الذي يكشف لنا الغامض من آيات فيلسوف كبير كأبي العلاء لا تزال الافهام تنضي دون الوقوف على حقيقتها وذلك لأن الرجل كان في أغلب احايينه يقف من موجودات الله ناطقها وصامتها جامدها ونامیها موقف الحيرة والاضطراب .

وهاك الرسائل الثلاثة قد اثبتناها تعميماً للفائدة :-

الليل وسكونه . فقلت : من الطارق ؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه . ومضجعاً يأوى اليه . وقد أعد لمن يسدي اليه تلك النعمة ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب . فاعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعي على جهد المتكلفين وترويق المزورين [1] . وقلت في نفسي ما لهذا الرجل بد من شان وفتحت الباب فاذا شيخ كنتي [2] من حملة أعباء الدهر قصير القامة ناحل الجسم زري الهيئة قد نيف على الثمانين من عمره فخيل لي ان ظهره المحدودب قوس وان عصاه التي يعتمد عليها وترقد شد إلى تلك القوس وانه قد أعد من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون [3] فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلى ورماني بنظرة خلت انها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي واحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي فرأيت وجهاً أسمر اللون قد

---

١ – زور الشيء حسنه وقومه .

٢ – الرجل الكنتي الكبير العمر كأنه نسب إلى قوله كنت في شبابي كيت وكيت .

٣ – وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في احدى رسائله بقوله : « واني لاعجز إذا اضطجعت عن القعود فربما استمنت بانسان فاذا هم باعانتي وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » وقوله في لزومياته :

يا نفس جسمك سربال له خطر ... وما يبدل في حال بسربال
قد اخلقته الليالي فاتركيه لقي ... فما يزيدك لبس الخلق البالي

انتثرت في اكنافه حفائر الجدري[1] وأسارير تنطوي تارة على عبر القرون وحوادث الدهر وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى . ولحيـــة بيضاء إلا انها شعثاء وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له اجلالاً واعظاماً : وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها . وأحسب ان لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها[2] فمشيت اليه مشية الهائب الوجل وقلت على الرحب والسعة يا سيدي لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه . ثم قدمت اليه يدي فمشى معي يتوكا ويتحامل ويهمس بهذه الكلمات :

ما أوسع الموت يستريح به الجسـ ـم المعنى ويخفت القلب

حتى وصلنا إلى غرفـــة الأضياف فأعاد النظر إلي وقال : اذهب لشانك فانا في حاجة إلى الانفراد بنفسي . فتركته وذهبت إلى غرفـــة منامي وقد أخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي وشغلني من أمره مـــا كاد ينسيني هموم نفسي فـــلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في استبطان سره حتى أخـــذ عيني نوم ثقيل لم استيقظ منه إلا في صفرة الأصيل .

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب

---

١ – اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك .

٢ – نسبتها أي ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور .

والمضطجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت اليه في خلوتــــه أهيب ما أكون له فرأيته جالساً في قبلته يقلب وجهه في السماء. ويكرر هذا الدعاء .

« اللهم لاراد لقضائك . ولا سخط على بلائـــك . أمرت فاطعنا . وابتليت فرضينا فامطرنا غيث إحسانـــك . وأذقنا برد رحمتك وألهمنا جميل صبرك . وثبت قلوبنا على طاعتك . فلا عون إلا بك ولا ملجأ إلا اليك . انك أرحم الراحمين . وأعدل الحاكمين [1] » .

ثم أطرق بعد ذلك اطراقاً طويلاً خلت أنه وصل فيــــه إلى مقام التجريد وان الذي أراه بين يدي جسد هامد قد اسرى بروحه إلى الملا الأعلى فجعلت اختلس الخطى اليه حتى صاقبته . فرفع رأسه إلي ذاهلاً . وقال أنت هنا . قلت نعم قال . في أي سنة نحن من تاريـخ الهجرة . فعجبت لسؤاله وقلت. في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف. قال ما اسم هذا العصر الذي تعمرونه . قلت . القاهرة المعزيه . قال أفي الأمة كثير مثلك . قلت . لم أفهم ما تريد يا سيدي . لقد استفتحت هذه

---

١ — حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبو العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه .

كم بودرت غادة كعوب	وعمرت أمهـــا العجوز
يجوز ان تبطىء المنايا	والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى « ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة الآية » ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول سبحان من هذا كلامه قال فعلمت صحة دينه ويقينه .

الأبواب التي تليك فلم أجد من دونها إلا ضعيفاً لا يلبث ان يراني حتى يرعد مني فرقاً فيوصد بابه في وجهي . اوضنينا يرى بؤسي وشكاتي فيزوى ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني . أو أعجمياً لا يفهم مـــا أقول ولا أفهم ما يقول قلت : ما في هذه الحلة التي تراها أعجمي . قال انهـم خاطبوني بلحن لا أعرفه وان شئت أعدته عليك كما سمعته . ثم أخـــذ يسرد علي الكلمات العامية التي سمعها من الناس سرداً متواصلاً كما تسرد الببغاء كلماتها فقلت . انك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري فانهم يحدثون عنه انه كان إذا سمع أعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون ان يفهم معناه [1] فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه [2] ورأرأ بمقلتيه [3] وزحف إلي حتى اصطكت ركبتانا فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله . ثم قال لي من هو هـــذا المعري الذي حدثوك عنه . قلت رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب . قال وما ظنكم به . قلت . ان الناس في أمره مختلفون . ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له . قال : ومن أيهم أنت ؟ قلت . ممن يتشيع له فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه قال : أكنت تؤثر ان تكون في عصره أو أن

---

١ – ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن انه كان يحفظ مـــا يسمعه من الأعجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلاً حتى يلقيه كما سمعه .

٢ – انكفأ لونه تغير .

٣ – رأرأ بمقلتيه حركهما وادارهما .

يكون في عصرك حتى تراه . قلت ما أعدل بهذه الأمنية غيرها قال: قد بلغك الله طلبك . قلت ، لم أفهم يا سيدي شيئاً مما تقول : قال أكاتم أنت علي سري . قلت : نعم . قال . أتقسم . قلت : للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهم نفسي لأقسمت . قال : الآن عرفتك . أنا أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري. فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي وعلمت اني قد هلكت وكان أول ما كان مني ان التفت ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب ان عرض لي من هذا المجنون عارض سوء . وكانه ألم بما في نفسي فقال : لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل ان ألقي كلمتي هذه انها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله ! قلت نعم . قال : وتؤمن بالبعث ؟ قلت نعم . قال . وما يريبك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته . قلت : ذلك يوم يبعثون قال : هبها قصة ابراهيم إذ قال له ربه : (فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا) وبعد فوالله يا بنيّ ما كفرت مذ آمنت ولا كذبت مذ عرفت ان الصدق منجاة من النار ولا استرد الله مني نعمة العقل بعد ما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك فقد أسلفت إلي من أياديك ما لا احتاج بعده إلى كذبة اتفق بها عليك . واني قاص عليك قصتي فاجنح لها ولك بعد ذلك حكمك . فسرى عني قليلاً ما كان ألم بنفسي من القلق فاقبلت عليه بوجهي فانشأ يقول :

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي فقد حوسبت

حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطوة واللمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفي فكادت حسناتي تكافىء في الميزان سيئاتي لولا تلك الكلمات التي كنتارددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج [1] فقد دخلت بهـا في

---

١ - لأبي العلاء أقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة فتارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله :

قدم الفتى ومضى بغير تثبة كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شده في دهره

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبيني ولم يوصل بلامي باء
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثوباء

وقوله :

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيهـا ولا عرس ولا أخت

وقوله :

لقد صرت في الدنيا غبيناً مرزءاً فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن
فان تحكمي بالجور فيّ وفي أبي فلن تحكميه في بناتي وفي ابني

وتارة كان يعد ولادة لولده جناية منه عليه كقوله :

ليذمم والداً ولد ويعتب عليه فبئس عمري ما سعي له

وقوله :

هـذا جناه أبي علـيّ وما جنيت على أحـد

زمرة المفسدين الذين تنكروا لارادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لا بد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بها لا أريد رد القضاء ولكن أريد اللطف فيه . فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الالهي وقال :

اللهم انك تعلم ان عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهاً لها متبرماً بها متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فرارا من اهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس لتمنى الا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى الا يرى مشرقها . وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه ان تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل فاسألك بعلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت ان تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيـــا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء في هــــذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الانساني ولا خلاص له إلا من طريق العدم المحض وان اسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الامعان في تصوير هذا الشقاء وتبيين ضرورة اتصاله بالانسان وأنــه لم يولد لما كان شقياً وقد أوضح غرضه هذا توضيحاً بيناً في قوله :

ألا تفكرت قبل النسل في زمن	بـه حللت فتدرى أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً	ومـا علمت بأن العيش يشقيه
شكا الاذى فسهرت الليل وابتكرت	به الفتاة إلى شمطاء ترقيـــه
وأمـه تسأل العرّاف قاضية	عنه النذور لعلّ الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله	إلى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له	بقراط ما كان من موت يوقيه

آلامها وأهوالها من عذاب النار [1] وان تجعل عذاب قلبه فـــداء عذاب جسمه فعاقبه بارجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابـه وحسبه من العقاب ان يلقى فيها آخراً ما لقي فيها أولاً انـــك بعبادك لطيف خبير » .

فقبل الله شفاعة نبيه وقضي ان أعود إلى الدار الأولى لاقضي فيهـا أياماً لا أعلم عدتها وقد علم الله سبحانه وتعالى اني في العهد الأول أحمده على العمى كما تحمده غيري على البصر فرد إلي بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام التي ساقضيها في داركم هـذه فاكتم علي أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها فقد اغتبطت بك مذ رأيت وعلمت ان الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت اني قد احرزت

---

١ – كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقد جميع الموحدين أن ما لقيه في هـــذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وزخارفها مدخر له أجره في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله :

أأخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله :

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها وشعرت بمـــا أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي الا خوف انقضائه .

ثم ما زلنـــا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوتـــه على ان فلتقي غـــداً .

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت اليه في طعام العشاء دجاجات ربلات [1] كنت أعددتهن للضيفان من قبل . فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر اليها مرة وإلي أخرى ثم قال ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إلي . قلت انهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن . فكانت تؤثرهن بافضل ما تؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن [2] واستدرن للذبح وكنت أبقى عليهن كلما طرقني طارق ابقاء على الفتاة ان ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات : أما اليوم فلم أر من ذلك بداً فذبحتهن اكراماً لك فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن .

فوجم الشيخ ثم أطرق اطراقاً طويلاً سمعته يهينم [3] فيه بهذه الكلمات.

---

١ — الربل الكثير اللحم .

٢ — اكتنز اللحم اجتمع وصلب .

٣ — الهينمة الصوت الخفي .

وارحمتاه ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق . الا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه ووجدانه ويابى الا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق وأخرس لا يبين[1] ربما كان زقاء الديك وقوقاة الدجاجة وصرصرة البازي وهديل الحمام وزقزقة العصفور وثغاء الشاة ومواء الهرة وخوار الثور وحنين النيب[2] بكاء بغير دموع وشكوى بغير لسان . وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لا بكى العيون دماء وفجّر الصخر عيوناً .

ثم رفع رأسه إلي وقال أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عند ما أردت ذبحهن : قلت لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لي فنظر إلي نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له:

مهلاً رويداً أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمد يدك إلي فلا شان لك معي ولا ترة[3] لك عندي .

---

١ — من كلام أبي العلاء في احساس الحيوان بالألم قوله في احدى رسائله (وقد علم ان الحيوان كله حساس يقع به الألم) وقوله : ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لأنها لا يتوصل اليها الا بايلام حيوان يفر منه كل أوان) .

٢ — النيب جمع ناب وهي الناقة المسنة .

٣ — الترة الثأر .

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد ان أموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي أفراخاً صغاراً هن إلى حياتي احوج منك إلى مماتي وليس من الرأي ان أكل أ٠رهن اليك من بعـــدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

أنت لا تملك ان تعطيني الحياة فلا تملك ان تسلبني إياها .

كل ما تستطيع ان تمن به علي انك كنت تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني الا فتات مائدتـــك ولا تسقيني إلا غسالة يديك وانك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا احساناً إلي بل لتهيىء لنفسك ما يسد شهواتها ويطفيء لوعتها وهـــل تعلم انك أنت الذي سجنتني في اقفاصك وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب .

أمن أجل تلك الخشارة [1] القذرة والجرعـــة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آلك من بنات الأرض [2] وهوامها ورســـل الفجر المنير اليك .

لا تظلم السبع بعد اليوم ولا تنتقم منه وحشيته وافتراسه فكلا كما وحش وكلا كما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الاوداج بمداك لا بل ان جريمتك

---

١ ـ الخشارة فضالة المائدة .

٢ ـ المراد ببنات الأرض الحشرات التي تخرج من بطنها .

أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنـــه يفترس ليشبع بطنه وأنت تفترس لترفه نفسك ولأنه يعجز لمن الاحتيال لقوته وأنت على ذلك من القادرين [1]

استضعفتني فبرزت إلي فهلا برزت لشبل الأسـد أو ديسم الدب أو فرعل الضبع أو حرش الحية وهيثم النسر أو ناهض العقاب ؟ [2] .

ما اخبثك أيها الإنسان عاجزاً وما أظلمك قادراً وما اشقاك بنفسك واشقي العالمين بشقائك .

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر ولكن الناس لا يعلمون .

هبه يا صاحب الدجاجات حدثني عنك الم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها منادح لاكرامي والقيام بحقي وأنت تعلم انني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء واقنعتها بالبلسن

---

١ – فضل أبو العلاء الحيوان على الإنسان في كثير من كلامه كقوله :

سبيت بالكلب فأنكرتـــه والكلب خـير منك إذ ينبُح

وقوله :

أقــل منهم شرا ومرزية ما ركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله :

خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتمي الذبحا

٢ – هذه فروق نتائج تلك الأنواع من الحيوان .

طعاماً والبلس حلوى [1] لأني كنت أعلم ان النبات طعامي الذي لا يلائمني غيره ولا يشبهني سواه وان لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة والأنياب العريضة والأظفار الحادة والجلود للزآبرة [2] والأعضاء المتوثبة والهامات الضخمة ، وكنت أرى ان أكلة اللحم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترونها إلى طبائعهم اجترارا لأنهم لا ياكلون إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف [3] والتقديد والشي والقلي ومزجوها بالخضر والتوابل والابازير والاقزاح [4] مزجا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كانما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

وأعجب ما كنت اعجب له من أمرهم انهم كانوا ينكرون علي رأيي في ترك ذلك الطعام ويمعنون في مساءلتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه ويلحون في ذلك إلحاحا شديدا حتى ظننت أنهم قاتلي من دونه [5] كانما

---

١ – البلسن العدس والبلس التين ومن كلام أبي العلاء :

يقنعني بلسن يمارس لي فان أتتني حلاوة فبلس

٢ – الثوب المزأبر الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

٣ – الصف تشريح اللحم عراضاً .

٤ – التوابل وما يليها ما يطيب به المطبوخ من الأشياء اليابسة .

٥ – كتب ابن أبي عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتاً مؤلماً ويعرض عليه ان يحمل بعض الأمراء أن يرسل اليه ما يكفيه مؤونة ذلك احراجا له واعناتا وأبو العلاء

يزعمون في ضوضائهم هذه انهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم [1] أو ان الله تعالى أنزل عليهم قرآنا الا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه ببطون بجر [2] مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من اداء ما افترض الله عليهم ان يؤدوه وترك ما أمرهم ان يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة ان ينقلب المباح باعراضهم عنه حراماً كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد ادائها مخافة ان تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة [3] .

وأحسب ان لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل لاوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرماً بها أو تمرداً عليها ولكنني كنت امرأً جزوعاً يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه وكنت فقيراً بائساً لا أملك في كل عام من الرزق إلا نيفاً وعشرين

يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته قد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل (ولو مثل بحضرته السامية لعلم انه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فانما يصلي قاعداً والله المستعان) .

١ — القرم والجعم شهوة اللحم .

٢ — بجر جمع ابجر وهو الممتلىء .

٣ — من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويغفلون كبارها :

ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين[1] وما كنت أجد السبيل إلى غيرهـــا إلا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شاني انني رجـل لو علمت اني ان اذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قـــدم وزير أمطرت السماء علي ذهباً واستحالت الحصباء تحت قدمي دررا مـا فعلت ضنا بنفسي على هذا الموقف المستوبل وايثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده[2] .

يعيب أناس ان قوما تجردوا لحامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا ان كان لم يجر عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

١ ـ من كلام أبي العـــلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله (ومما حثني على ترك اللحم ان الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فاذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن ، وبعض ما لا يعذب في الألسن) ومن كلامه الدال على انه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامي بالمال أوجب ان يطلب مني مــا يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبـــتم لغيري التخويـــل

٢ ـ كان أبو العلاء غاية الغايات في قناعته وانفة نفسه وقـــد ظهر ذلك في حال معيشته واعتقاله ببيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الأمراء فيـه وإلحاح الكبرياء عليه في البروز اليهم والكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة ارضى القليل ولا اهتم بالقوت

وقوله :

من مذهبي الا أشـد بفضة قدحي ولا أصغي لشرب ممزوج

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قـــدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للايمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهـــم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول ان رسول الله لم يمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى بـه من الجوع فامسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول يا عائشة اخواني من أولى العزم من الرسل قـد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهـم

لكن اقضي مـدتي بتقنع يغني واخر بالقليل الاروج
هـذا ولست اود اني قائـم بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر ان يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منـه اطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله :

تغيبت في مـنزلي برهـة ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقـل وحـم لروحـي فراق الجسد
بعثت شفيعا إلى صالـح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمـا م وأسمع منه زئير الأسد
فـلا يعجبني هـذا النفـا ق فكم نفقت محنة ما كسدا

وأجزل ثوابهم ، وكان يقول اشرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة[1] وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة[2] إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء ، وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويخففه في الشمس ثم يأكله قائلاً كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب[3] والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله أو محرماً ما حلل الله ؟ لا فما كل من أبغض حلالاً حرمه ولا كل من أحب حراماً حلله فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ، ولو قطعت إرباً إرباً ما شربته ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بحل الطلاق ثم قال أبغض الحلال إلى الطلاق بل لو تبينت لعلمت ان قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها والنفوس لا تنفرق إلا مما حل لها ولا تشتهي إلا ما حرم عليها .

فويل لي من هؤلاء الناس شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد فصبر جميل والله المستعان على

---

١ — مخ الحنطة خالصها .

٢ — الدرة السوط يضرب به وكان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة لا تكاد تفارق يده .

٣ — الجوذاب طعام يتخذ من سكر ورز ولحم .

ما تصفون [1] .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه حتى ما يكاد يبين فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحـــه من الطعام فلبثنا ناكل صامتين حتى فرغنا فاردت ان أرفه عليه ما ألم بـــه من الهم فقلت له يا مولاي ان للحيوان اليوم شاناً غير ذلك الشان الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثيراً من الناس مذهب الرفق به والإحسان اليه واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين ياخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة فاذا وجدوا من تحمل على دابته فوق ما ما تحمل أو يسوطها سوطاً عنيفاً [2] رفعوا إلى الحاكم أمره أو رأوا حيواناً هزيلاً أو مهيضاً [3] حملوه إلى مكان خاص بمعالجة امراض الحيوان فعالجوه ان وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به واشفاقاً عليه .

قال لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وها نحن نرى في كل يوم مريضاً يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله وصحيحاً يخترم في

---

١ — من كلام أبي العلاء في عدم رضاه الناس عنه حتى في زهده عمـــا في أيديهم :

حورفت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

٢ — ساط دابته سوطاً أي ضربها بالسوط .

٣ — المهيض الكسير .

اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناظر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر اليه [1] .

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم الا مرائين مصانعين ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم الا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا ان يقول الناس عنهم انهم رحموا الحيوان فاحرى ان يرحموا الإنسان، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن الثمرة حلالاً تذرعاً إلى البذرة حراماً .

يا بني آدم دعوا النوق في مراحها والشاء في زوربها والوحش في كناسه والضب في جحره والذئب في وجاره والقط في أفاحيصه ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها ولا الحمام عن محاضنها ولا اليعاسيب عن خلاياها ولا الأسماك عن مسارحها [2] وجنبوها فخاخكم وشباككم وقتركم وزباكم [3] ومداكم وشفاركم فان لها نفوساً كنفوسكم ووجداناً كوجدانكم ورجاء في الحياة كرجائكم واعلموا ان الله تعالى ما اغرى بعضكم ببعض ولا سلط قولكم على ضعيفكم ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين

---

١ – من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن ادراك الغيب .

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيح

٢ – هذه فروق أماكن تلك الحيوانات .

٣ – القتر جمع قترة بضم القاف وهو الداموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد والزبى جمع زبيه بضم الزاي وهي أحفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد .

أحياءكم إلا بعد أن ضريتم[1] بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها وقطعتم إلى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والاوداج والاباهر[2] فارحموها ترحموا أنفسكم واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، انكم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون[3] .

---

١ ــ ضرى الوحش باللحم اعتاده وألفه .

٢ ــ الغلاصم جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق والاباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين إذا انقطع مات صاحبه .

٣ ــ للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب .

لقد ساءني مغدى الفقير بجهله ... على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فان ونى ... أحال على ذي فترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله :

لك النصح مني لا أغاديك خاتلا ... بمكر ولكني أغاديك مكرما
إذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري ... أخا الأنس أياماً وان كان محرما
يصوغ لك الغادي قلادة هالك ... من الدم تحي وجدك المتضرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش :

لا تطرد الوحش فما يلبث المطرد في الدنيا ولا الطارد

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة :

روح ذبيحك لا تعجله ميلته ... فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك :

جاؤا على حيوان البر ثم غدوا ... على البحار فقالوا الصيد ما فيها
لم يقنع الحي منها ما تنقصه ... حتى أجاز أناس أكل طافيها

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب وكان الظلام قـــد أظلنا بجناحيـــه فشعرت ان سنة من النوم قد رنقت [1] في عينيه فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً .

وقوله يبكي على الطائر المقتول :

وابك على طائر رماه فتى لاه فأهوى بفهره الكتفا
أو صادفتـــه حبالة نصبت فظل فيهـــا كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهدا فقص عند الشروق أو نتفا
كأنـــه في الحياة ما فرغ الغصن فغنى عليـــه أو هتفا

١ – يقال رنق النوم في عينيه إذا خالطها كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أي تحليقه ورفرفته بجناحيه .

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فاذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها ، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ، ويبسم للعصافير تتنقل بين أنجمها [1] وأشجارها ، ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها . فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم من الحزن فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى واد أفيح بصنوف الأشجار ، وأفانين الأزهار ويتراءى في ألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجميم [2] وكروم وأعناب ، وسنابل وأعشاب ، وتفيض أرجاؤه بالجداول والغدران ، والقنى والخلجان ، مطردات ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقات ، يفضي أولاها إلى أخراها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها على صغيرها ، وقويها على ضعيفها ،

---

١ ــ الانجم جمع بفتح النون وهو ما نجم من النبات على غير ساق .

٢ ــ الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الأرض والبارض أول ما يبدو من النبات فاذا تحرك قليلا فهو الجميم .

فكأنها صلال رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الاريض تبترد بين روابيه وأكاته، ومصاعده ومنحدراته، فهي تنقبض وتنبسط، وتنساب وتتمعج [1] ، وتقبــــل وتدبر ، وتقوم وتقعــد ، وتتواثب وتتراجع ، وتتواصل ثم تتقاطع ، وكان حفيف أوراقه وخرير مائــــه وتغريد أطياره وضجيج نواعيره وعجيج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل اليه أنــه هابط من أبواب السماء ، أو ان سكان الالمب [2] فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كانه نصب من الانصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكوته حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول :

للمليك المذكرات عبيد   وكذلك المؤنثات امــاء
فالهلال المنيف والبدر والفر   قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثرة والأرض والضحى والسماء
هـــذه كلها لربك ما عا   بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إلي وقال ، كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهـــم عاجزون

---

١ – تمعجت الحية تلوت في سيرها وتثنت .

٢ – الالمب في خرافات اليونان مجمع آلهتهم ويقولون انلتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون .

عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ والمؤرخون يصانعون ويدهشون ، أو من أفواه الفقهاء والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون [1] والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق اليها ، قلت وأين تجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء بين ذالك الطل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقى بها غارسها في التربة فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في السرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تاخذ مكانها من مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها

---

١ — كثيراً ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله :

ويقال الكرام قولا وما في العصر الا الشخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم :

وادعوا للمعمرين أموراً لست أدري ما هن في المشهور
أتراهم فيما تقضي من الأيام عدوا سنيهم بالشهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون ان أول من شاب من الرجال هو سيدنا ابراهيم عليه السلام :

ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قديماً حل في اللمم

وجريدها وقنوانهـــا وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرهـا ، ويراه في الكواكب الماثـــلة في السماء . والأسماك السابحة في الماء ، والأجواء المملوءة بالهواء ، والليل إذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، فيمتلىء قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث بـه المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي اليه سواه [1] .

---

١ ــ كان أبو العلاء من أشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده انها تورث الأحقاد والأضغان فضلاً عما تلقيه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء، وكان يكره من المتناظرين ان المنافسة وحب الغلب كثير ما يحملهم على الخروج عن الحق وانكار البديهات كما يظهر ذلك من مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بان زخرفه ... يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شأم وفي يمن ... يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودناياهم فقد شغلوا ... بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله :

ملل غدت فرقا وكل شريعة ... تهدى لمضمر غيرهـا اكفارها

وقوله :

علم الفتى النظار ان بصائرا ... عميت فكم يخفي اليقين وكم يعم
لو قال سيد غضا بعثت بملة ... من عند ربي قال بعضهم نعم

وقوله :

هذا الفتى أوقح من صخرة ... يبهت من ناظره حيث كان
ويدعي الاخلاص في دينه ... وهو عن الالحاد في القول كان
يزعم ان العشر ما نصفه ... خمس وان الجسم لا في مكان

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب والعشب يأكل التراب والتراب يأكل السائمة فيستحيل الجماد نباتاً والنبات حيواناً والحيوان جمادا فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتتشكل جواهرها وتعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه والمدل بعظمته أو اقتداره ربما كان بالأمس صفيحة [1] ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة باليـــة في ذؤابة [2] نعل [3] .

---

١ — الصفيحة الحجر العريض .

٢ — الذؤابة من النعل ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم .

٣ — ردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه فمن ذلك قوله :

مضى الانام فلولا علم حالهم ... لقلت قول زهير أية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا ... منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

وقوله :

ومـا يدريك والانسان غمر ... وقـد يدري خليلك وهوداد
لعل مفاصل البناء تضحى ... طـلاء السقيفة والجـدار

وقوله :

فلا يمس فخارا من الفخر عائدا ... إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل اناء منه يصنع مرة ... فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأرض وما درى ... فوهـاً له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفـين ... في طويل الازمان والآباد

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن ان تستقر في قلوب الأشرار إلى ان تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، وإلا اقتتلوا لا لأنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة ان يطير اليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث ان تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألم به من تلك الادران والأوحال ، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويزيد شيئاً فشيئاً حتى يسود غضباً على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور ، ولا يزال ماداً يديه بالدعاء إلى الله تعالى ان جعل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الا رضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها ان تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة ان يصيبها سهم نافذ من سهام الشرار التي تتطاير يمنة ويسرة وصعوداً وهبوطاً فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه .

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء واني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا اليه عله ييسر لنا ظلة نفيىء اليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارة[1]، فمشينا اليه حتى بلغناه فرأيناه مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره[2]، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم فحييناه بتحية حياً بأحسن منهـا وأفضينا اليه بطلبتنا فاشار بيده إلى كوخه وكان منـه على كثب فاذا عريش من عيدان القصب مسجج[3] قد ارتفع فوقه سقف من جذع الأشجار واعتمد على أسيطينة[4] من اللبن الأسود وامتدت أمامـه صفة مستطيلة واستدار به نؤي يمنع عنه مسيل الماء فدخلناه فلم نر فيه الا رثة[5] من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق للخبز اليبيس وخلقان من القمص والابراد وقدر وأثفية وجرة مملوءة ماء وحشية[6] بالية مفككة تضطرب في جوفهـا حشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل، فشربنا حتى ارتوينا

---

١ ـ يقال فثأ القدر إذا سكن غليانه والصارة العطش .

٢ ـ شرست اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق وشثنت القدم إذا خشنت وغلظت وزأبر الثوب إذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

٣ ـ يقال سجج الحائط إذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين .

٤ ـ اسيطينة تصغير اسطوانة .

٥ ـ رثة المتاع بكسر الراء ساقطته .

٦ ـ الحشية الفراش المحشو .

وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا وما زلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل[1] في مشيته ويحمل فاسه على عاتقه ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعشرة فجلس ولداه بين يديه وأنشأ يلقي الينا معاذيره ويتوجع لعجزه عن اكرامنا واسعافنا بما نحب فعذرناه ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي ، وكنت اترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان .

الشيخ ـ من يملك هذه الأرض .

الفلاح ـ هي لسيدي ومولاي أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته صاحب هذا القصر الذي تراه ، وأشار إلى قصر فخم يرفرف باجنحته في هذه البقعة الخضراء ، رفرفة الحمامة البيضاء ، في القبة الزرقاء .

الشيخ ـ أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة فلعلك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره واحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه .

الفلاح ـ حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين ممتطياً فرسه الدهماء في ركب من أصحابه وحاشيته ماراً بهذه الاجمات الملتفة يتنزه ويتروح يطارد الثعالب والذئاب مطردة الشجاع المستقتل ثم يعود إلى قصره مسروراً مغتبطاً بصبحه ومساه .

الشيخ ـ إنما أسالك عن أياديه عندك وصنائعه لديك لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته .

---

١ ـ قزل به قزل وهو أقبح العرج .

الفلاح ــ وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها نعمة أجل قدراً وأسنى قيمة من أن أكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا السيد رفيــــع الجاه جليل القدر واسع النعمة تطاطىء بين يديه رؤوس العظماء ويختلف إلى حضرته كبار الأمراء .

الشيخ ــ أيها الرجل ما عن هذا أسالك إنما أسالك هـل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك أو يخلو بك أحياناً ليتغير همك وما تهتف بـــه نفسك عن رغباتك وحاجاتك .

الفلاح ــ الحق أقول يا سيدي اني ما سمعت في حيـــاتي باعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي أو يرفـع اليه طرفه إلا بالنظر الشزر أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام وإغفاله أمري ونهيي وزجري وتاديبي، وقد أعد لي حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته عصياً غلاظاً يتعهدني بها من حين إلى حين كلما نسيت أمراً من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأني أعلم أني منه على ذكر[1] وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه اغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ ــ وأين أم هذين الولدين .

---

١ ــ الذكر التذكر .

الفلاح ـ ماتت رحمها الله في سبيل سيدها فقد كنا يوماً نمتح[1] على حافة بئر فزلت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحيـــاة فما أسفت على شيء أسفي على ان لم أكن قد لحقت بها فاكون قد هلكت في سبيلي خدمـــة سيدي كما هلكت ليترحـــم علي كما ترحم عليهـا ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشيخ ـ ربما كنت قانعاً من إحسان سيدك اليك وعطفه عليك بمـا تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها .

الفلاح ـ لا والله يا مولاي ما اعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادتـه في قفيزبر ، أو حفنة تمر ؛ إلا ان تسقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يابه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي أو أحتطب من أطراف هذا الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنـــه أو أخطات فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كانه يحاول أن يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه فاشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي ان أكون قد بلغت مـــا أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال ما نغص علي يومي إلا منظر ذلك الرجل الابله المسكين في صغر نفسه وسقوط همته وذلة جانبه ، وما أحسب ان الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها

[1] ـ متح الماء متحا نزعه .

ووجدانها فاصبح لا يعرف لنفسه حياة ذلةاتية مستقة عن حيـــاة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده [1] فهو لا يفرح إلا لفرحـــه ولا يغتبط إلا باغتباطه ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على اخلاصه اليـه وتعبده له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه وكذلك يفعل الظـــلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مـــرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهـم صخرة لا تظـلم الناس ولا تكذب

---

١ – ما كان أبو العلاء يرى لاحد فضلا على أحد إلا بالفضائل النفسية وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله :

أسر ان كنت محموداً على خلق ولا أسر بأني الملك محـــمود

وقوله :

وأقصاني عن الرؤساء كوني وكونهـم لخالقنـا عبيـدا

وقوله :

وان أفضل من تعظيمهم رجلا صفراً من الحكم التعظيم للحجر

الرسائل

كتاب في التقاضي

أنا إن سألتك حاجتي أعزك الله وبسطت اليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً ، فان أنجزتها فليست أولى المنعم ، ولا واحد النعم ، فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ، ولقد مثلت أيدك الله بين ان استشفع اليك بذري الجاه عندك ، والزلفي لديك ، وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت ان الثانية بك أحرى ، وبفضلك اجدر ، والسلام .

كتاب مقاطعة

أتاني كتابك وقد ابللت من مرض حبك وصحوت من رقدة طال علي الغياب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك [1] ، ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي

---

١ — أي لم تعجبني محاسنك .

ماخذه من قبل ، ولم أر بين سطور ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة [1] ، وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدلني منك، واعتقني من رقك، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري فجفت الدموع التي طالما أذلتها [2] بين يديك ، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكوكب شوقاً اليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف [3] ظلالها وترن أطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت، ولقد عالجت هذا القلب الشموس [4] في الرجوع إلى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح جموح المهر الارن [5] ، وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته ، وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فاسات عشرته ، وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبيلك أخشن مركب ، وانهلته من جفائك وكبريائك شر منهل، فما هو إلا ان امكنته الغرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان، ويبلى الجديدان .

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

---

١ — الروعة المسة من الجمال .

٢ — اذلتها امنتها .

٣ — رف النبات اهتز واضطرب .

٤ — شمس امتنع وأبى .

٥ — المهر الارن النشيط .

كتاب تهكم

علمت ان ساسانيا[1] طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك ويماحلك، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من روضة مالك ؟ وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم ؟ فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقته ، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصياً على أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، على ان الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذي اعطيت ، والدراهم التي ابقيت ، الا حرف واحد[2] ، فليت شعري من أين دهيت ، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك وإن أخوف ما أخاف عليك ان تكون أتيت من باب تلك الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فان كانت هي فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فانك حيثما ذهبت، وانى حللت ، لا تقع عينك إلا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء، وصورة شوهاء وثوب مخزق ، وشلو ممزق، وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فان لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين ، وتسولت مع المتسولين ، ثم

---

١ ــ النسبة إلى ساسان وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبصر والاحتيال على الصدقات .

٢ ــ يشير إلى ان الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد وهو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم الدراهم وانه لا يستهان به لأن الدراهم وان كثرت فهي ليس إلا درهماً على درهم .

لا تجد لك راحماً ولا معيناً ، فارحم نفسك قبل ان ترجم سواك ، ولا تنس ان تردد في صباحك ومسائك ، وفي مستانف خطواتـــك ، وفي أعقاب صلواتك كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة » .

وعلمت انك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لها فوك ، ورقصت لها أشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزهـا وشوائهـــا ، وفاكهتها وحلوائها ، مثلج الصدر ، ثابت القـــدم ساكن القلب ، طيب النفس ، كانك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر ، وشبع اليوم وجوع الأبد ، وانك انما طعمت ما في الحبالة من الحب ، تأكله اليوم لياكلك غداً فمن لك بالنجاة من مضيقك إذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه وقد حفت بـــه كوكبة من خلانه وصحبه، فطار لمرآه لبك، وتمشى له قلبك في صدرك، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر ان منحت ، والعار ان منعت ، وأعجب من ذلك انك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني بمجلسه فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب خرب ، ولقد كان ذلك في انزوائـك واعتزالك ، واكتفائك بقرصـك وزيتك ، وخلوتك بصندوقـــك ، في كسر بيتك ، من حيث لا تزور ولا تزار منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك ، وأقضيت مضجعك وأقعدتك على مثل روق الظبي خفية وجذاراً، فاياك والعود إلى مثلها يطل غمك، ويسود عيشك ، والسلام .

كتاب يأس

كتابي إلى سيدي ومولاي والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها

وترن أطيارها ، وتشتجر أغصانها ، وتمتنق غدرانها وهاجرة من اليأس تتلظى ثارها، ويمتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته واحسانه ، ورأفته وحنانه فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضرة ، وثغرها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها من عثرات في الخطوات ونكبات . في الغدوات . والروحات . وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها . والقلوب وأمانيها . فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي . ثم أنثني على كبدي من خشية ان تصدعا . فليت الله يصنع لي فيمطر على قطرة واحدة من غيوث رحمته واحساسه أبل بها غلتي ، واطفيء بها لوعتي . أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري[1] ونحري نشوباً لا يستبقي بعده عرقاً نابضاً . ولا نفساً متردداً . فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف لا هو حي فيرجى . ولا ميت فيبكي .

يقولون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء وصاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلزال

---

١ ـ السحر الرئة .

الأكبر ، والموت الأحمر ، والخوف من الجوع والنقص من الأمـــوال والانفس والثمرات ، بمثلما عذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغية ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذاراً ، فوق أرض تعزف جنانها [1] ، وتحوم عقبانها ، وتزأر سباعها وتعوي ذئابها ، وتحت سماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها . وتترا كم غيومها . باسوأ في نفسه أثراً من رجـــاء كاذب يتردد بين جنبيه . تردد الغصة بين لحييه . لا هي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

وقد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية وفتن الجبال ان أراها سارية في مساربها . سارحة في مسارحها . تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات. ومفاجآت المقادير . لا يعنيها الأسف على فائت من العيش . ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق . قـد قنعت من الماء بالكدر . ومن العيش بالجشب [2] . فتساوي لديها شحمها ولحمها . وشيحها وقيصومها . وسعدها ونحسها . ونعيمها وبؤسهـــا فما تحفل بنوازل القضاء . ولا رجوع السماء . ولا تبـــالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها .

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه كمثل رجل عثرت به قدمـه فسقط في جوف بئر بعيد غورها . ناء مكانها، فما زال يتخبط ويضطرب ويهب ويثب . حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها ثم تلمس أخرى غيرها فما

---

١ ــ جمع جان .

٢ ــ الجشب الخشن من الطعام .

وجدها حتى بلغ منه الجهد أو كاد . فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى فسقط فخاف للغرق فعاد إلى تلمسه . فعاد إلى سقوطه . فـــلا هو بالغ رأس البئر لينجو من الموت . ولا بالغ قرارة الماء . فينجو من الشقاء .

إرم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعاً صرعـــه أمله . أو قتيلاً قتله رجاؤه أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعـــده لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه . أو باكياً يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه . أو ساعياً دائباً وراء غايـــة يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها . ولا يمسك بهـــا حتى تفلت من يديه . أو ساهراً متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً داعياً مناجياً . لا تراه إلا عين السماء . ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء .

هذه حالتي . وذلك همي . وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعاً وأفارق عشيرتي وصحبتي . ويراعي ومحبرتي . علني أجد في البعد عن منارات الأماني ومباعث الآمال راحة اليأس . فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء .

فها أنذا قابع في كسر بيتي لا مؤنس لي إلا وحشتي . ولا أنيس إلا وحدتي . أتخيل البيت قبراً . والثوب كفناً والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم . لاعالج نفسي على انسان الحياة . وأمانيها الباطلة. ومطامعها الكاذبة. حتى يبلغ الكتاب أجله وهذا آخر عهدي بك وبغيرك والسلام.

نفس الشاعر

للشاعر ثلاث مميزات لا أستطيع ان اتصور ان الله وهبـــه ملكة الشعر وأفاض عليه روحـــه إذا تجرد من واحدة منها . « عزة النفس » و « طهارة القلب » و « سماحة اليد » . واجتماع هذه الصفات فيـــه هو السبب في بؤسه وشقائه وعدمه واقتاره . لأن صاحب النفس العزيزة لا يحتمل منة لأحد . وصاحب القلب الطاهر لا يعرف كيف يتلمس وجوه الحيل لعيشه . والكريم لا يبقى على شيء مما في يده .

ولقد صور الروائي العظيم « ادمون روستان » عزة نفس الشاعر واباءه وهي الصفة الأولى من تلك الصفات أحسن تصوير في قطعة بديعة من رواية « سيرانودي برجراك » أقدمها للقارىء لتكون مثالاً صالحـــاً للشعراء يحتذونه في حياتهم الأدبية وميزاناً يزن به الناس قيمة الشعراء ومنزلتهم من الشعر والأدب .

❁

أعجب الكونت دي جيش أحـــد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكاردينـــال ريشلييه وزير فرنسا الشهير بالشاعر العظيم « سيرانو دي برجراك » يرتجل على مسمع منه قصيدة من أعلى طبقات الشعر وأرقاها

فقال في نفسه ان اصطناع شاعر مجيد كهذا الشاعر حلية جميلة لا ينبغي ان يفوتنا التحلي بها . ثم استدناه اليه وكان جالساً على كرسيه العالي جلسة العظمة والكبرياء وقال له: أتحب ان تكون لي يا سيرانو؟ فامتعض الشاعر امتعاضاً شديداً ونظر اليه نظرة جامدة قاسية وقال له لا يا سيدي ولا لأي انسان . قال . ان صهري الكاردينال يعجب بك جداً . وكثيراً ما سمعته يثني عليك وعلى أدبك . وقد علمت انك نظمت منذ عهـــد قريب رواية تمثيلية جميلة أسمها « اجريبين » لم توفق إلى تمثيلها حتى اليوم فلو انك ذهبت بها اليه وقدمتها له لعرف لك فضلك فيها . وأحسن جزاءك عليها وربما نوه بشأنها وشاد بذكرها فاهتمت الملاعب بتمثيلها وتم لك ما ترجوه لنفسك من المجد والفخار . والرجل كما تعلم شاعر جليل راسخ القدم في النقد الأدبي : وسينظر في روايتك هذه نظر الناقد البصير ولا احسبه يضن عليك بتهذيب ما يحتاج إلى التهذيب من أبياتها فتاتي آيـــة الآيات في حسنها وجمالها . فاكفهر وجه سيرانو وتغضن جبينه وقال له . ذلك مستحيل يا سيدي وان دمي ليجمد في عروقي عندمـــا أتخيل ان انساناً في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد في قصيدة من قصائدي . فعجب الكونت لأمره وقال له : ولكنك تعلم من شانه انه حين يعجب ببيت من الشعر يندفع ثمه غالياً . قال . ربما كان ذلك صحيحاً . ولكنه لا يستطيع ان يبذل فيه من الثمن مثل ما ابذل. لأنني أسكب في شعري دم قلبي حاراً . ودم القلب أغلى ثمناً من الفضة والذهب . فقال . يظهر لي انك أبي النفس يا سيرانو . قال . نعم يا سيدي ما في ذلك شك واني أحمد

الله على انك قد شعرت بذلك . فاستشاط الكونت غضباً وقام من مجلسه ساخطاً . وهو يعجب أشد العجب لكبرياء هذا الرجل الذي يرفض قبول نعمة تسيل على مثلها نفوس الشعراء والروائيين جميعاً .

وكان لبريه صديق سيرانو جالساً بجانبه فأخذ يعنفه بعد انصراف الكونت ويلومه على حمقه ورعونته وينعى عليه خشونته وغلظته ويقول له : انك قد اضعت فرصة كان جديراً بك ان تفترصها حين لاحت لك ، فقد كنت في أشد الحاجة إلى من يرفع لك شأن روايتك وينوه بذكرها ويمسح عن رأسها غبار الخمول والضعة ويأخذ بيدك في طريق المجد الذي تحبه وتعشقه. فماذا أنت صالح بعد ذلك؟ فانتفض سيرانو غيظاً واستوى في مكانه جالساً وألقى على صديقه نظرة طويلة هادئـــة وانشا يقول له بصوت قوي رنان .

ماذا تريد مني يا لبريه ؟ أتريد ان أعتمد في حياتي على غيري وان أضع زمـام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعني ويجتبيني ويكفيني مؤونة عيشي ويحمل عني هموم الحياة واثقالها مثلي في الناس كمثل شجرة « الليلابا » في النبات تلتف بأحد الجزوع تلعق قشرته وتمتص مادته بدلاً من ان تعتمد في حياتها على نفسها .

أتريد ان احمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلعته وأدور بها في أسواق المساومة منادياً : عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الدولة والجاه يبتاع نفساً بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء ؟

أتريد ان انصب نفس سخرية في الأندية الخاصة والمجتمعات العامة. ألعب كما يلعب القرد وانطق كما ينطق الببغاء . وأتلون كما تتلون الحرباء. رجاء ان أجد التفاتة من عيني أمير أو أرى ابتسامة على شفتي وزير ؟

اتريد ان تستحيل قامتي المعتدلة إلى قوس من كثرة الانحناء وان تتهدل أجفاني من كثرة الاطراق والاغضاء وان تتكون فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة الركوع والسجود بين يدي العظماء !

أتريد ان يكون لي لسانان؟ لسان كاذب امدح به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ولسان صادق أعدد به عيوبه وسيئاته. وان يكون لي وجهان؟ وجه راض عنه لأنه يحسن إلي ويحميني . ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويسترقني ؟

أتريد ان أقضي حياتي كلها واقفا في مكاني أرثب فيه وأطفر واتطاول بعنقي ليتوهم الناس اني طويل وما أنا بطويل ؟ أو ان اتخذ لي بوقاً ضخماً انفخ فيه ليتوهم السامعون اني جهوري الصوت وما أنا لا نافخ في بوقه ؟

أتريد ان أسيّر سفينة شعري في العالم كما يفعل جماعة الشعراء والروائيين باذرع العظماء والكبراء بدلاً من المجاذيف التي أنحتها بفاسي وبشعور الدوقات العجائز البيضاء بدلاً من الأشرعة التي أنسجها بيدي . وبتنهدات الأميرات العاشقات بدلاً من الرياح الجارية التي يسخرها الله لي ؟

أتريد ان أجعل حياتي الأدبية تحت رحمة المقرظين والناقدين

والراضين والساخطين ؟ فان شاءوا رفعوني إلى علياء السماء . وان شاءوا هووا بي إلى أعماق الجحيم ؟

ذلك ما لا يكون والموت أهون علي من ذلك .

أريد ان أعيش حراً مستقلاً لا أخشى أحداً ولا أهاب شيئاً . لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة. ولا يفرحني ان تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالأحرف الضخمة في أكبر انهارها . ولا ابالي اتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورنت نغماتها في أرجاء المسارح أم بقيت في جرار خزانتي اقرأها بنفسي لنفسي واتغنى بها في ساعات وحدتي وخلوتي .

أريد ان أعيش حراً مطلقاً . أضحك كما أشاء . وأبكي كما أريد واحتفظ بنظري سليماً . وصوتي رناناً . وخطوتي منتظمة . ورأسي مرتفعاً . وقولي صريحاً ، أنظم الشعر في الساعة التي اختارها وفي الشأن الذي أريده : فان أعجبني ما ورد علي منه فذلك؟ والا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلاً من ان أتوسل إلى الطابعين ان ينشروه والادباء ان يقرظوه . والممثلين أن يمثلوه . والعظماء ان ينوهوا به ويرفعوا من شانه .

أحب ان لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري ولا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها لنفسي لا التي يريدها الناس لي . أي انني آنف ان أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي كما أحب واشتهي فان قدر الله لي منزلة في الحياة فلن اكون مديناً بها لأحد غيري . ولن يكون فخرها عائداً إلا علي وحدي . ولا أسمع لأحد من

الناس كائناً من كان ان يرفعني . بل لا بد لي من ارفع نفسي بنفسي .

أريد ان أعيش حراً طليقاً أناضل من أشاء واجادل من أشاء وانتقد من أشاء . وان أقول كلمتي الخير والشر للاخيار والأشرار في وجوههم لا متملقاً أولئك ولا متقياً هؤلاء .

ان العبد المقيد بقيود الاحسان والنعم لا يمكن ان يكون حراً طليقاً . فليعفني الناس من انعمهم وصنائعهم . لأني لا أحب ان اكون عبداً لهم ولا أسيراً في أيديهم .

وآخر ما اقول لك اني افضل ان أعيش ممقوتاً مرذولاً عند الناس على ان أعيش ذليلاً مستعبداً لهم . ولا أحب ان ارتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي . وحسبي من الرفعة والشرف ان أنال منها نصيبي في العالم على قدر ما تسمح به قوتي ومواهبي لا أزيد على ذلك شيئاً .

فقال له لبريه : عش بنفسك وحيداً كما شئت ولكن لا تكن عدواً للجميع .

قال : ربما أكون مغالياً في ذلك ولكن ما دعاني إلى المغالات في المعادات إلا مغالاتكم معشر المتكلفين والمتحذلفين في المصادقة والموالاة وتصنعكم في استجلاب الخلان والأصدقاء وما بغض إلى التوادد والتحابب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقاً أو عدواً شريفاً أو وضيعاً كريماً أو لئيماً حتى اصبحت لا أحب شيئاً في العالم حبي لبغض الناس إياي ولا أكره شيئاً كرهي

لحبهم وتوددهم إلي .

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيباً سواه ولكنه عيب يعجبني جداً ويلذ لي كثيراً . وانك لا تستطيع ان تدرك مقدار ما أجده من اللذة في نفسي عندما أسير في طريقي فاراه مملوءاً بنظرات البغض ملتهباً بنيران الحقد وأرى نفسي محوطاً بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين .

اما المثالب التي اسمعها والعتاب الذي يصوب إلى فهي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر على ردائي من الجو ثم ينزلق عنه إلى الأرض فادوسه بقدمي .

ان الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيء « بالياقات » الايطالية اللينة التي تتموج حول الأعناق فتتموج الأعناق بتموجها . فهي وان كانت لينة مرنة إلا انها لا قوام لها ولا جمال .

اما العداوة فهي الدرع الحديدية الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن ان يضعف أو ان يخور . وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة . أو هي « الياقة » الاسبانية من جميع وجوهها . يعدها الناس غلا حديدياً وهي في الحقيقة هالة منيرة . اه .

*

هذا هو المثل الذي ضربه « ادمون روستان » للشعراء والأدباء ليكون عبرة لهم وميداناً لاقدارهم ومنازلهم . ولقد قضى سيرانو بقية

أيامه بعد ذلك محافظاً على مبدئه لا يحتمل منة لأحد. ولا يمد يده بالسؤال لأحد . ولا يعطي هوادة في حق من الحقوق أو مبـــدإ من المبادىء . يانتقد رجال الدين الذين يتجرون بدينهم والاشراف الذين يمالئون الظلمة على ظلمهـــم وجورهم . فعاش فقيراً معدماً مضطهداً حتى مات موت المساكين المعوزين ولكنه عاش بعد ذلك في صفحات التاريـــخ عيش العظماء النابهين .

تابين فولتير

١٧٧٨ – ١٨٧٨ – ١٩٠٨

فولتير هوجو المنفلوطي

في ٣ مايو ١٨٧٨ احتلفت فرنسا بتذكار مرور مائة سنة على وفاة فولتير ودعى فكتور هوجو فالقى في الحفلة في باريس خطبة التابين .

في مثل هذا اليوم – منذ مائة سنة – مات الرجل العظيم . مات الرجل الخالد . مات فولتير بعد ان احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال . وأثقال جلائل الأعمال . وأثقال الأمانة العظيمة التي عرضت على السموات والأرض فابين ان يحملنها فحملها وحده . وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آن واحد . يبغضه الماضي لأنه يجهله ويحبه المستقبل لأنه عرفه .

أيها القوم ان في هاتين العاطفتين – البغض والحب – سراً عظيماً من أسرار المجد العظيم لذلك الرجل العظيم .

❁

كان وهو على سرير الموت محاطاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً متفقتين

جوهراً وحقيقة . لأنها جميعاً في سبيل مجده وفخاره . كان ينظر أمامه فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله . ويلتفت وراءه فيطرب به مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يكنه الماضي في صدره لأولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصروا عليه .

كان فولتير رجلاً وأكبر من رجل . كان وحده أمة كاملة. انه عاهد نفسه على انجاز عمل فانجزه ولم يخلف وعده. وكأن الارادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه فوجدت فولتير أصلبها عوداً فانتدبته للقيام بالعمل الذي قام به فاتمـــه .

❁

سلخ هذا الرجل أربعة وثمانين حولا كانت ملأ الفضاء الكائن بين مغرب الشمس ومشرقها بين غروب الملكية وشروق الثورة . ولد في عهد لويس الرابع عشر ومات بعـــد انقضاء ملك لويس السادس عشر اشرق على مهده الشعاع الأخير من أشعة العرش العظيم وعلى نعشه الشعاع الأول من أشعة الهاوية العظيمة .

كيف تكون للهاوية أشعة : أجل ان في الكون هوىً طيبة مباركة وهي التي تجذب الشر اليها وتطويه في جوفها .

❁

الآن أمضي في بياني فقد شرحت الكلمة الغامضة . وما كنت لأمضي قبل ان اشرحها لأننا ما اجتمعنا هنـــا إلا لننطق بالصواب من القول

والرائع من الحكمة .

انا اتينا هنا لفصل الخطاب في المسالة الاجتماعية . جئنا لنرفع شان المدنية ونكرم الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيدها . جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه: جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين . اجتمعنا لنمهد الطريق للوحدة الانسانية التي يسعى اليهـا العلماء والعاملون . والصناع المجدون . وجملة القول انا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام .

انا نمجد السلام حباً في المدنية وحرصاً على رونقها ورواءهـا فان السلام فضيلة المدنية والحرب رذيلتها .

*

نحن في هذه اللمحة الكبيرة في هـذا الموقف المهيب نجثوا على الركب ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ونقول للعالم الذي ينصب لسماع صوت فرنسا (لا قوة إلا قوة الضمير ولا مجـد إلا مجـد الذكاء) ذلك في سبيل العدل وهذا في سبيل الحق .

أيها القوم لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة على هـذا المثال الشعب في المنزلة الدنيا وفوق الشعب الدين والقضاء . هـذا يمثله القضا وذاك يمثله الاكليروس .

اتدرون كيف كان الشعب وكيف كان الدين والقضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً والدين رياء والقضاء ظلماً .

ان كنتم في شك مما أقول فاني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك

التاريخ أرى فيها غناء ومقنعاً للحائر المتردد .

❁

في ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مشنوقاً في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة طولوز فهاج الشعب ولغط الاكليروس وبحث القضاة فكانت النتيجة ان كان الشاب منتحراً فسمي قتيلاً ووالده بريئاً فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته ان يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانياً وكان يمانع فتاه ان يتمذهب بالكثلكة . انها الجناية فظيعة جداً ينكرها الدين ويحيلها العقل ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين فحكموا الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

❁

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سبق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو جان كالاس ثم جرد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت به أطرافه وتركوا رأسه متدلياً .

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتل . كاهن يحمل الصليب وجلاد يحمل القضيب. وقاض اسمه داود يحمل في صدره عهد القوم اليه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته وتمشى قلبه في

صدره لينظر إلى الصليب في يد الكاهن بل إلى القضيب في يد الجلاد .

❋

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على اثرها صيحة مؤلمة ثم اغمي عليه فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش وأفاق فضربه الجلاد الأخرى فوق الذراع الأخرى فعاد إلى صرخته واغمائه وعادوا إلى تنبيهه وانعاشه حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وكسران فكانما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الاغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومد اليه الصليب ليقبله فحول وجهه عنه فاقبل الجلاد وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة الصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات جان كالاس .

وما هي أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحراً لا مقتولاً فحكموا ببراءة الشيخ بعد قتله .

❋

لم يجن الشيخ على الفتى وجنى على الشيخ القضاء .

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الأولى وجدوا في ابفيل صليباً عتيقاً أكل السوس احشاءه حتى عاف البقاء فيه ـ مطرحاً فوق

الجسر بعد ان عاش فوق السور ثلاثة قرون وكان ذلك في ليلة عاصفة .

من ألقى به من أعلى السور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم ؟ ربما عصفت به ريح أو عبث به عابر طريق أو هوى به ضعف الشيخوخة واعياء الهرم. وعلى كل حال لم يعرف المجرم . ولكن أبى الدين إلا ان يوجد مجرماً هنالك أعلن مطران اميان براءة من غفران الله ورحمته لكل من علم أو ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

❋

ان الحرمان جريمة فظيعة قاتلة متى أوحى بـه التعصب الذميم إلى الجهل العظيم .

كان هذا الحرمان سبباً في ان القضاء عرف أو ظن أنـه عرف ان ضابطين اسم أحدهما لابار والآخر ديتالون مرا على جسر ابفيل في تلك الليلة المشؤومـة يترنحان سكراً وينشدان نشيداً عسكرياً . مرا بالجسر وانشدا النشيد فهما المجرمان. وكانت المحكمة مقدس ابفيل ولم تكن باقل عدلاً وانصافـاً من مجلس الكانيتول في طولوز فامرت بالقبـض على الرجلين فاختفى ديتالون وقبض على لابار واسـلم إلى القضاء فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة ابفيل بالاعدام وأيد حكمها برلمان باريس فدنت الساعة المخيفة الهائلة .

❋

لقد تفننوا في تعذيب الشيفاليه دي لابار وارهاقه ليكشفوا عن سر

فعلته وعن شركائه في جريته - أي جريمــة المرور على الجسر وانشاد النشيد .

لقد عذبوه عذاباً أليماً حتى ان الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه اغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هذا اليوم وجــاء اليوم الثاني وهو يوم ٥ يونيو سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم إلى ساحة ابفيل الكبرى حيث تشتمل نار العذاب وتضطرم اضطراماً فاسمعوه نص الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستاصلوه . ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

*

على هذه الصورة مات الشيفاليه دي لابار كما مات من قبله جان لاكاس .

أحزنك هــذا المنظر يا فولتير وآلم نفسك وملك عليك شعورك ووجدانك فصحت صيحة الرعب والجزع فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك العظيم الخالد

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكف عادية الظالمين وتقــلم أظفار الوحوش الضارية . وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه وتنتصف منــه للمستقبل فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين .

*

أيها الرجل العظيم طبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتهـــا على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ومن حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء يغدوا اليها الإنسان لاهياً ويروح ساهية لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ولا يخفضها فيدري ما تحته .

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد وفرسايل تتلألأ حسناً وبهـــاء . ورونقاً وماء . وظرفاء الشعراء مثل سان اولاير وبوفلير وجنتيل برنار لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

❋

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها فاستطاع القضاء الظالم بمساعـــدة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد . وان يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد .

❋

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائـــلة . قوة البلاط . وقوة الأشراف . وقوة المال . وقوة الشعب المائج المندفع وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية نعامة بين يدي الملك تجثو أمامـــه خاضعة صاغرة إلا ان جثيها كان على جثة الشعب . وقوة الاكليروس المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده واثار حرباً عواناً على هذا العالم القوي المخيف ولم يره أكبر من ان يتخذل ولم ير نفسه أصغر من ان ينتصر .

أتدري ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الاداة التي تجاري

العاصفة في هبوبها وتسبق الصاعقة في انقضاضها . ما كان له سلاح غير القلم . فبالقلم حارب وبالقلم انتصر .

*

انتصر فولتير . فولتير وقف وحـــده تلك المواقف المشهودة . فولتير ادار وحده رحى تلك الحروب الهائـلة . حرب العلم والجهل . العدل والظلم . العقل والهوى . الصلاح والفساد فتم على يديـــه الغلب للخير على الشر وفاز فوزاً مبيناً .

كان فولتير قلباً وعقلا . كان له رقة الفتاة في غلالتها وشدة البطل في شكته .

فولتير محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة وأرغم أنف الكبرياء وأذل عزّ الرؤساء . ورفع السوقي إلى حيث لا يصل اليه ظـــلم القاضي الغوثي وتنطع الكاهن الروماني وغار ليفرن ومونتبالي كما غار لكلاس ولابار .

وعلم ومدن وهذب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس فلم تنكسر سورته . ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقى الاستبداد بالسخريـــة والغضب بالاستخفاف والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

أقف هنا قليلاً اجلالاً لابتسامة فولتير .

*

فولتير هو الابتسامة والابتسامة هي فولتير . أفضل مزايا الرجل

الحكيم ان يملك نفسه عند الغضب وكذلك كان فولتير . كان عقـــله ميزان أعماله فما غلبه حتى الغضب للحق وكنت تراه عابساً مقطباً فما هي إلا كرة الطرف ان ترى فولتير الضاحـك المتبسم في مكان فولتير العابس المقطب . يكاد يكون ابتسامـه ضحكاً لولا حزن الحكيم وهم العاقل . كان أبتسامه كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء ويرتاح لها الأولياء كان يبسم للقوي فيخجله بتهمه واستخفافه . وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه . فلنمجد ذلك الابتسام الذي كانت أشعته كاشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الأضواء .

نعم الابتسام ابتسام أنار الطريـق للعدل والحق والصـلاح وكشف من ظلمات التقليد .

*

ان ابتسامة فولتير انشات هذه الهيئة الاجتماعية الجديدة وزينتهـــا بالاخاء والمودة والحرية والمساواة فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام سواء سكن القصر الكبير أو الكوخ الحقير ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحـاكم القدير ونشر السلاح أجنحته البيضاء على المجتمع الانساني فقرت السيوف في الأغماد وهدأت الدماء في العروق والأرواح في الأجسام .

كل ذلك ابتسامـــة فولتير . ولسوف يأتي ذاك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين فيبسم فولتير في السماء ابتسامـــة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الاكبار .

أيها القوم . ان بين المصلح الأول والمصلح الثاني سراً خفياً واتصالاً عجيباً وان كان بين عصريهما ثمانية عشر قرناً .

*

إن قتال الفريسيين ورفع الستار عن الدسائس وارغام أنف الظلم الكذب وهدم الهيكل لتجديد بنائه ــ أي إصلاح الفاسد ــ والانقضاض على القضاء المستبد والكهنوت السفاح وطرد الصرافين من بيت المقدس بالسياط وإعادة الميراث للمحرومين منه والرفق بالضعيف والعاجز وتعزية اليائس والمحزون ومساعدة المظلوم والمقهور ــ كل ذلك كان جهاد المسيح بالأمس وهو أشبه شيء بجهاد فولتير اليوم .

ان الفلسفة ساعدت الإنجيل . ان اللطف أتم ما بدأت به الرافة . « وتبسم فولتير ــ ومن تلك الدموع وذلك الابتسام تالف جمال المدنية الحديثة .

هل كان فولتير يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا . بل كان يغضب أحياناً في سبيل الحق .

*

أنا لا أنكر أن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للانسان حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض . ولا أنكر أن الفلسفة هي الاعتدال . وإظهار الحقائق واضحة بين مؤلفات الأعمال والأقوال ولكن أرى أن حب الحق

يجب أن يكون في مرتبـــة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالأقذاء والأقذار .

*

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله . اما الأولى فيكفلها العدل . واما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل . لذلك يحب الناس القاضي العادل والكاهن الصالح لأن الأول صورة العدل والثاني مثال الرجـاء . فاذا انقلب العدل ظلماً والأمل يأساً عافهما الانسان ولوى وجهـــه عنهما وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أعتقد بدعتك ». وهناك يهب الفيلسوف الغيور غاضباً فيحاكم القضاء أمـــام العدل والكهنوت أمام الله . كذلك فعل فولتير فكان من المحسنين .

*

أيها القوم صورت لكم فولتير كما هو والآن أصور لكم عصر فولتير ان الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً إلا قليلاً. وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شانه وعلا ذكره. فهو كالشجرة تكون في نظر الناظر أطول في الغابة الشجراء معها في التربة الجرداء لأنها تكون في منبتها ومستقرها وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة . روسو وديدرو اولا ثم بوفون وبومارشه ومونتسكيو أولئك القوم المفكرون علموا الناس النظر في حقائق الأشياء والتفكر الوصل إلى اتقان الاعمال وعلموهم ان صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل فاجادوا وافادوا .

وضع بوفون أساس العـــلم بطبائع الكائنات واكتشف نوعـــا من

الكوميديا الاجتماعيـــة كان لم يزل مجهولاً بعض الجهل إلى ذلك التاريخ واهتدى مونتسكيو إلى أسرار الشرائع فاحيا باحيائها الحق الدفين .

*

اما روسو وديدرو فلهما الشأن الأعلى والمقام الأسمى .

كان ديدرو شعلة متوقـــدة من الذكاء كان كثير التعمق والغوص والتغلغل في حقائق الأشياء كان رقيق القلب محباً للعدل متعطشاً اليـــه فبدا له ان يصل إلى المبادىء السامية الصحيحة من طريق الخيال فوضع الانسكلوبيديا .

اما روسو فانه خدم المرأة خدمة جليلة وأجمل آثاره فيها انه وحد الأم والمرضع وأنزلهما من مهد الطفل منزلاً واحداً ان روسو كاتب بليغ شاعر في كتابته موثر على الوجدانات يعرف كيف يلمسها فيهيجها طار باجنحة الخيال في جو السياسة حتى لمس بيده حقائقها . له فضل السبق على كل من هتف باسم الوطن . كان قلب روسو يخفق للأمة وقلب فولتير يخفق للنوع البشري . ويمكننا ان نقول ان روسو كان أضيق ميداناً من فولتير . فميدان الأول فرنسا وميدان الثاني رقعة الأرض .

مات أولئك القوم العظام وهوت من افقها كواكبهم . كانوا جسداً وروحاً أما الجسد فقد طواه القبر وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

أجـــل . أن الثورة روحهم والمظهر الساطع المتلألىء بحكمتهم ومبادئهم هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة الماضي وفاتحة

المستقبل. انك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقفها ووقائعها. إذا اخترقت أشعة العقـل حجـاب المسببات ونفذت إلى الأسباب نرى في نور الثورة الساطع ان ديـدرو كان واقفـــاً وراء دانتون وروسو وراء روبسبيير وفولتير وراء ميرابو ونجد ان أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة .

أيها القوم ان تسمية العصر باسم رجله العظيم عمل جليـــل وفكرة سامية بدأت بها ثلاثة شعوب اليونان وايطاليا وفرنسا . فقيل عصر باروكليس وعصر اغسطس وعصر لاون العاشر وعصر لويس السابـع عشر وعصر فولتير .

انها فكرة سامية تشتمل على سر عظيم من أسرار المدنية وتدل على أن الأمة تدرك مقدار ما تمتد اليه عظمة الرجل العظيم . كان ينقصهـــا قبل عهد فولتير انها كانت خاصة بالملوك ورؤساء الحكومات . ولما كان فولتير أجل من ملك وأكبر من رئيس بطل هذا الاختصاص وقيل عصر فولتير .

*

أجل ان فولتير ملك المبادىء ورئيس الاصلاح والعزيز القادر الذي أمكنه أن ينشىء عالماً جديداً على اطلال العـالم القديم وأن يسلب القوة الحاكمة سلطتهـــا ويمنحها للفكر وأن يكسر الصولجان والسيف ليقيم مقامها العدل والرحمة . وأن يمنح المجتمع حريته حتى لا سلطة على الشعب الا سلطة القانون ولا زاجر للفرد إلا زاجر الضمير .

*

كان الفرق بين الأنانية والوطنية غامضاً مبهماً فظهر ظهوراً واضحاً جلياً وعرف الانسان كيف يحفظ حقه ليكون رجـــلاً ويقوم بواجب الوطن ليكون وطنياً . هذه المعرفة هي معنى قولنا عصر فولتير وهي معنى تلك الحادثة الجلية حادثة الثورة الفرنساوية .

*

ولا أنكر أن القرنين السادس عشر والسابع عشر مهـدا كثيراً من العقبات الاجتماعية للقرن الثامن عشر . فقد انذر رابيلاس الملكية في غرغنتوا وموليير الكنيسة في ترنوف لأن حب العدل وبغض القوة كان ظاهراً في هاتين النفسين الكريمتين .

إذاً فالعهد بسلطان القوة بعيد . فمن قال ان الحق مع القوة فقـــد تقمص صورة من صور الأجيال الوسطى وخاطب أقواماً بادوا قبـــل ثلاثة قرون .

ان القرن التاسع عشر يجل القرن الثامن عشر ويحترمه احترام المتعلم للمعلم . ان الأول دعا فلبى الثاني دعاءه وأمر فأتمر بامره .

*

أيها القوم ان الكلمة الأخيرة التي انطق بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار . قد وجـــد الحق ضالته التي كان ينشدها وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي فمن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكاناً من هذا المجتمع . فان فعلت كان أليق الأسماء بها الاستبداد .

*

ان المجتمع الانساني أنكر على القوة حقهـــا المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها فقاضاها بين يدي التمدن ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء وأتى بالتاريخ شاهدا على دعواه فقضى التمدن له عليها وجاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً .

شف ثوب الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فاصبح الأبطال المجرمون في نظر الانسان سواء .

*

هدم التمدن تلك القاعدة الفاسدة وهي ان الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير . فادرك الإنسان ان قتل الشعوب أكبر إثماً وأعظم جريرة من قتل الأفراد واستكبر ان يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقـــة عاراً . وبالجملة عرف ان الجريمة حيث حلت وفي أي مظهر ظهرت وان القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً ان يسمى القيصر أو يدعى الامبراطور. ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء لبس تاج الملك أو قلنسوة الاعدام .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الواضحة ، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود ، ان منظر الدماء والاشلاء أفظع منظر لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير وان يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي خفن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن .

محال ان يستمر الحال على هذا المنوال . أتشقى المرأة فتلد ويفرس

الزراع فيكسو الأرض بساطها الأخضر ويجهد العامـــل فيملأ الخزائن ذهباً وفضة ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟

إنما ساحة القتال الشريف هذا المجتمع الذي جمع بين جدرانه ما تفرق من أعمال الإنسان الجليلة (وكان القاء هذا الخطاب أثناء افتتاح معرض باريس العام سنة ١٨٧٨) والانتصار الشريف هو ان تعرض باريس هذا المجمع على بني الانسان .

غير اني أقول مع الأسف انا لا نستطيع ان نخدع أنفسنا وننكران الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها وتنقض من سرورها . لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء . ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن ألحرب لم تزل باقية . وأعجب مـــا في أمرها أنها ترفع رأسها بكل جرأة وسماحة في مثل هذا العيد الجليل عيد السلام العام .

*

ان الملوك في السنتين الماضيتـين اساء بعضهم ظنـاً ببعض فاختلفوا وسيحل اختلافهم عقدة أتفاقنا فنلجأ بشؤمهم إلى التقلب والاضطراب.

*

فلنذكر عند ملوك الحرب فولتير وجان‌جاك وديدرو وروبتسكيو ملوك السلام ولنوجه وجهتنا إلى تلك الروح العالية . إلى تلك الحيـــاة

العظيمة . إلى ذلك الدفين المقدس ولنخضع أمـــام قبره عسى ان يمدنا بروح منه ويهدينا إلى نصرة السلام . فانه يعد مرور قرن على حياتـــه لم يزل في الأحياء الخالدين .

*

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عـــال . كفى كفى . انها همجية . انها تشوه وجه المدنية ويستنصر القرن التاسع عشر عليهم بالقرن الثامن عشر .

ان أسلافنا من الفلاسفة هم رسل الحق إلى البشر فلنضرع اليهم في تذكارهم هذا ان يتداركوا المقتلة قبل وقوعها وينادوا ان الحيـــاة ملك للانسان وعظيم عليه ان تسلب منه . وان التمتع بالحرية جق من حقوق العقول والأفـكار .

ان النور لا أثر له بين أضواء القصور . فلنطلبه بين ظلمات القبور

ا . هـ .

جوستاف لوبون وفتحي زغلول

إن لكتاب روح الاجتماع عندي يـــداً لا أنساهـــا لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة « أحمد فتحي زغلول باشا» فقد وجـــدني ضالاً فهداني . وحائراً فرفع لي مناراً أحمر حتى عرفت السبيل .

كنت أنقم من هذا المجتمع المصري شؤوناً ما كنت أنقم مثلهـــا من غيره من المجتمعات البشرية. وقد كنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب في أطواره وصفاتـــه . حتى قرأت ذلـك الكتاب الذي شرح طبيعة المجتمعات عامة شرقيها وغربيها وقرر لها حكماً واحـداً لا يختلف ولا يتخلف . فعرفت أن لا فرق بـين الشعب المصري وغيره من الشعوب الأخرى إلا كما يكون بـــين الشيء والشبيه بـه من الاتفاق في الجوهر والكيفية . والاختلاف في العرض والكمية :

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من أتباع الحزب الوطني أن أراها مائلة إلى تصديق زعماء ذلك الحزب في دعوام القدرة على إزعاج الاحتـــلال الانكليزي من مكانه ومقاومة قوته القاهرة بمقالات يسطرونهـــا . أو خطب ينمقونها . وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الأمر فيه بصراخ

الشوارع . وهتاف الجامع . بل إلى تصديق كل قائم بينهـــا سواء أكان هنديا أو جركسيا أو بربريا أو نوريا أو فرنسيا أو انكليزياً زاعماً أنه يخدم الوطنية المصرية بصدق وإخلاص كما صدقت بالأمس المستر بلانت الانكليزي في دعواه أنه قد نزل من حب الوطن المصري منزلة من يهدي النصائح والعظات إلى الخديوي السابق أكبر أصحاب الشأن في القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنيا . وكما صدقت اليوم المسيو ديروجا الفرنسي والمسيو دراجيلا الاسباني في دعواهما الغيرة عليهــا . والاهتمام بشأنها فما لأنهما على أميرها أبي الوطنية. ومطلع كوكبها الساري وظهرت في توديعها إلى منفاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقا . وتندي له الوجوه الكريمة حياء وخجلا. فلما قرأت في روح الاجتماع له « ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة في حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوي كاحساس الأشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانــة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد ، عرفت أن تلك طبيعة الجماعـــات وأن ليس الذنب المجتمع المصري خاصة بل على المجتمعات الانسانية عامة .

وكنت أعجب الرجل الذي لا بأس بلبه. ولا ظنة في فهمه وادراكه من محام بارع . أو طبيب حاذق . أو عالم محقق . أو باحث مدقق . أن أراه على جلاله وعظمه منتصباً وســـط أتباع الحزب الوطني يضج ضجيجهم . ويصرخ صراخهم . ويقول بما يقولون . ويفهم كما يفهمون ويتقلب في أكفهم تقلب الكرة في أكف اللاعبين . ويشاركهم في تصور

ما لا يتصور . وتصديق ما لا يكون . حتى قرأت في روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة « ولا ينبغي في رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا إذ العالم والجاهل وسواء في عدم القدرة على التمييز ما داموا في الجماعة » وقوله في موضع آخر « وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون في الوجدانيات والشهوات والمشاعر . وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء . ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية » وقوله في موضع آخر « يهبط بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله في نفسه كان رجلاً مثقف العقل . مهذب الأخلاق . ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة . ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته . وفيه عنفه وفيه حماسته وشجاعته . وفيه من سهولة التأثر بالألفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة . ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التي اشتهرت عنه . وبالجملة فان الإنسان في الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الرياح ما هبت » هنالك هدأ خاطري . وثلج صدري . وأمكنني أن أقول ان أذكياءنا ليسوا بأغبياء وعلماءنا ليسوا بجهلاء . ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها في كل زمان ومكان .

وكنت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطني لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بهم ويستلبون أموالهم ان كانوا أغنياء . وقواهم ان كانوا أقوياء . ومستقبلهم ان كانوا متعلمين . وحاضرهم ان كانوا موظفين . وعقولهم ان لم يكونوا شيئاً من هذا وذاك . كما كنت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم . باللين ويرفق بهم . ويحنو عليهم . ويضع يده في أيديهم في مزالق الحوادث مخافة ان تزل بهم أقدامهم . فما زال عجبي حتى قرأت في روح الاجتماع قوله في حديثه عن الجماعة « وهي تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلاً . لأنها في نظرها صورة من صور الضعف ليس الا . لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بـــل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها .

وكنت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التي تنشرها جرائد حزبهم وتأثرهم بها على ما تشتمل عليه من الأدلة الفاسدة. والمعاني السقيمة. والأساليب الباردة والبراهين الملفقة التي يأنف عقل العاقل أن يمنحهـــا حتى النظرة الأولى . وكنت أظن ان ذلك راجـــع إلى فساد ذاتي في أذواقهم . أو ضعف غريزي في مداركهم حتى وقفت على الحقيقة عنـــد الاطلاع على قول صاحب روح الاجتماع « أن رابطة الأفكار التي تقارنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية . فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الاسكيماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم . فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب في الفم . وكالمتوحش الذي

يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل . والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي إلى الكلي ومن التخصيص إلى التعميم بلا ترو ؟ والأدلة التي يقدمهـا اليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لأنها هي الأدلة التي تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فانها لا تدركها بحال فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها . فاذا نجح فذلك مـا أراد . ولو ألقيت خطب في عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير مـا أحدثته تلك الكليات التي دخلت في الرؤوس المراد اقناعها .

وكنت أعجب لأغراض المتعلمين منهـم عن الحقائق التاريخيـة والسياسية والاجتماعية المتعلقة بذلك فالمسألة المصرية وعلاقـة الدول الأجنبية بها عامة والدول المحتلة خاصة وتقدير الفرق بـين قوة الدولة الغاصبة وقوة الأمة المغصوبة . وتنظيم حلقات الوسائـل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها وطيرانهم وراء الذين يقولون لهـم « الجلاء على الأبواب » و (الدستور قاب قوسين أو أدنى) و (قطعنا شوطاً بعيداً) و « لم يبق إلا القليل » و« الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا » و(الحكومة الألمانية تساعدنا) و (الحكومة الانكليزية ترتعد فرائصها منهـا) و (اوروبا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب) وأمثال ذلك مما هو أشبه بخيالات الأطباء الذين يحولون تعزية المرضي والمشرفين وخرافـات المتجمين الذين يعبثون بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء . حتى قرأت

في روح الاجتماع قوله « سارت الفلسفة إلى الأمام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمنا لم تهيىء للجماعات خيالاً يلذها . والجماعات لا غنى لها عن الأوهام . لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة التي تدرب حين يكون الضياء ... فما كانت الجماعات في ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها . وإذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونات وراحت تعبد الأوهام التي ترضى الامرة [1] عليها لمن أضلها . والويل منها لمن هداها » فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة ولكنها جماعة . ومن الضروري أن تكون كذلك .

وكنت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به . وإلحاحهم في طلبه إلحاح الفاهم المدرك . وأنا أعلم أن أكثرهم لا يفهمون منه إلا أنه القوة فلو عرفوه حق معرفته لوجدوا في أنفسهم أن عدمه خير لهم من وجوده التي يقتدر بها الشعب على أن ياكل بعضه بعضاً بلا رقبة [2] ولا حذر . لأنه عدل ورحمة . ولأنه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما ياكلون . فلم أقف على سر تشيعهم له وهو في الحقيقة أبغض الأشياء اليهم . حتى قرأت في ذلك الكتابُ قوله « وكم من جماعة تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها .. لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع » .

---

١ ـ الامارة والولاية .

٢ ـ الانتظار .

وكنت أراهم غالين في مشاعرهم . متطرفين في ميولهم . وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا . وإما أن يبغضوا فيقتلوا . وأن الرجل عندهم اما أن يكون إلهاً أو شيطاناً ولا ثالث لهما . وان رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم . فاكاد أخصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لي روح الاجتماع سر المسألة في قوله « غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد . فهي كالنساء تذهب فوراً إلى الحد الأقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهي لا يقبل البحث . والرجل منفرداً قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل في الجماعة فانه متى نفر انقلب نفورة حقداً شديداً » وقوله في موضع آخر « كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائماً بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهمية. وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها . فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريباً. وهي ميالة ميلاً ظاهراً إلى عدم التمييز بينهما » .

وكنت أعتقد أن لا شيء يؤثر في نفوس الجماعات غير اخلاص الدعاة . ثم استحال على التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من اطوار زعماء الحزب الوطني ودخائل نفوسهم أنهم لا يطلبون مما يعملون في هذه الحياة غير ما يطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة . وجرعة صافية .

ومركب فاره[1] ومتكا وثير[2] . حتى اهتديت إلى حل هـذه العقدة في قول صاحب روح الاجتماع « وجد القواد في الأمم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولاً في قومه. بل هم في الغالب سوفسطائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتيـــة فيتملقون ذوي المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم . وقـــد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً إلا أنه سريع الزوال » .

وكنت أعتقد ان أقدر الناس على قيادة الجماعـات أذكاهم قلبـــاً . وأوسعهم عقلاً . وأفصحهم لساناً . وأجزأهم قلماً . فلما رأيت أن قواد الحزب الوطني ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التي نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان . أو بلاغة قلم أو عـــلم واسع . أو خلق مؤثر . وقفت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت في روح الاجتماع قوله « ليس القواد غالباً من أهل الرأي والحصافة بـل هم من أهل العمل والاقدام . وهم قليلو التبصر. على انه ليس في استطاعتهم ان يكونوا بصراء . لأن التامل يؤدي غالباً إلى الشك ثم السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوي الأعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطـلاً . ولا تثنيهم حجة عن

---

١ — خفيف نشط حاذق .

٢ — لين ثخين .

طلب ما قصدوا بالغاً منها الخطل[1] ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد . بـــل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً (وقوله في موضع آخر) وكان أكبر القواد من الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جـــداً . وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً في العقـل . فان الإنسان ليدهش مما يراه من التخبط[2] عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو روسبيير . ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار ... صيغ كلية جارية على كل لسان . وشقشقة في الفصاحة محفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهـــم لزميله : هل من مبارز : وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة. فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف كاميل ديمولان .

وكنت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطني وبعض كتاب جرائده كيف استحالوا إلى جناة مجرمين بعد أن كانوا أشرفاء أنقياء . وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالاغضاء عما تقترفه من سب الأبرياء وهتك أعراض الأشراف والعب[3] في الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن

---

١ ــ خطل في منطقه ورأيه ــ أخطأ .

٢ ــ تخبط الشيطان ــ افسده .

٣ ــ عب الماء شربه من غير تنفس .

كانوا يترفعون عن لمم الذنوب وصغائر الدنايا . كما كنت أعجب لهذا البائس المسكين الذي كان أندى الناس وجهاً . وأكثرهم حياء وأدباً . كيف حسن في نظره منظر جريمة القتل التي ارتكبها ثم هلك في سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذي يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يثل من بعدها[2] ثم عرفت أن ذلك لازم من لوازم الجماعات عندما قرأت قول صاحب روح الاجتماع (أن الفرد يكتسب من جوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة . ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد . فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة . وهذا الشعور هو الزاجز للنفوس عما لا ينبغي) وقوله في موضع آخر (تصدر الجرائم عن الجماعات غالباً بسبب تحريض قوي . ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم . وهذا ليس شأن الجناة في الأحوال الاعتيادية وهنا يمكنني أن استخلص مما تقدم الحقائق الآتية :

(١) ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأي من الآراء دليلاً على صحة ذلك الرأي لأنه رأي فرد واحد تأثر به الباقي تقليد أو عدوى . ورأى الواحد مترجح بين الخطأ والصواب .

(٢) ليس انضمام جماعة من أذكياء الناس وعقلائهم في حزب من

---

١ – صغائر .

٢ – المراد بهذه الجريمة جريمة الورداني قاتل بطرس باشا .

الأحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلاً على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحة مبادئه لأنهم لا يجتازون عتبته إلا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيهم خارج بابه .

(٣) لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد ذكياً أو عاقلاً أو داهية أو مفكراً أو فصيحاً بل يكفيه من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم .

(٤) ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلاً على رفعة من يحبون . وضعة من يبغضون . ليس جرائمهم التي يقترفونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلاً على أن من يقتلون يستحق القتل . أو يشتمون يستحق الشتم أو يحتقرون يستحق الاحتقار بل كثيراً ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم .

(٥) لا يكون مقتدراً تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب في كتاباته أو خطاباته مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلي . ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة والتضليل أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم .

(٦) لا سبيل للانسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما

كان زكياً أو مفكراً إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام اليها أو كان له من عزيمة الرأي وصلابـــة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له . فيحضرها شاهداً كغائب ومجتمعاً كمنفرد .

(٧) لا يجـــوز للتلميذ في أثنـــاء الدراسة أن ينضم إلى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو القوة إلا بعـــد أن يستمد من العلم قوة تساعده على اكتساب ملكة التجرد التي لا بد له من معالجـــة اكتسابهـــا للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها ان اضطر في مستقبل أمره إلى الانضمام اليها .

(٨) جميع القوى التي يتوسل بهـــا قائد الحزب أو الجماعات إلى التاثير على أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التي يستمدها من مقاومة الحكومة التي يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب فانه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه . وتشبثهم بـــه ويؤنس بأحاديث نكبته ونوادر رزيئته قلوبهم كلما ألم بها الملل منه ومن وعوده الـكاذبـــة وأقواله المرددة. فان كان لتلك الحكومة أرب في القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافياً أو قطع خطابته إن كان خطيباً فلتفعل ، وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعي بأمرهم ، وتنفذ بقية القوى التي يتوسل بها اليهم .

(٩) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة والبله وسرعة الصدق والاندفاع والغلو شراً دائماً بل قد تكون خيراً مخلصاً إذا رزق الله تلك الجماعات قواداً دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها

إلى سعادة أممهم وهنائها . وحريتها واستقلالها .

(١٠) ليس وجود التهرس والتحمس والغضب والتهور في حزب من الأحزاب المصرية دليلاً على تأخر الأمة وانحطاطها انحطاطاً كثيراً . لأنها صفات عامة في كل الجموع الشرقية الغربية وان كان خطرها علينا أكثر من خطرها على غيرنا .

لص في أثواب جائع

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها إلا مرة واحدة في حياته وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر. فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب . فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة وانه فتش عنها فوجدها وفتشت عنها حتى عيت بأمرها فما وجدت اليها سبيلاً .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع . وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق الدينار الثاني ولو وكل إلي أمر القضاء ما هان علي أن أعاقب لصوص الدراهم وأغفل لصوص الدنانير ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق

جزائه على جهد نفسه في جلب السلعة وبذل راحته في صونها واحرازها. وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه ان الأول بدل الجهد والعمل . والثاني بدل الغش والكذب .

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت ان أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على ان لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة ان يسلبه إياه : أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم واراحة الحقوق على أهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب فهي عنده ذيول وأذناب لا يابه [1] لها ولا يحتفل بشانها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً . فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم وأدان البريء وبرأ الجاني . فاذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكم القانون عليه كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل ومن صنائعه .

هذا شأن أعدل القضاة واهداهم إلى الحق واقومهم سبيلاً أما الآخرون فيطبقون أحكامهم على قانون الربح وينزلون من الدينار منزلة اللازم من الملزوم فيدورون معه وجوداً وعدماً .

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني أما شحيحاً أو

---

١ ــ ابه للشيء تفطن له واحتفل به .

متلافاً [1] أما الأول فلو كان جار البيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ثقة منه ان قلبـــه المتحجر لا تنفذه نسمات الرحمة ولا تمر بين أثنائه نسمات الإحسان وأما الثاني فماله بين ثغر الحسناء . وثغر الصهباء فعلى يد أي رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء .

فتشت عنها في مجامع السياسة فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب .

ورأيت ان الملك في كرسي مملكته . كالحوذي في كرسي عربته . لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » . وذاك ينقض معاهدتـــه ورأيت ان اعدى عدو للانسان الانسان وان كل أمة قـــد اعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها ما شاء الله ان تعده لاختها من عدد الموت وأفانين العذاب. حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب من الألقاب لبس الإنسان فروة السبع واتخذ من تلك العدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وانياباً كانيابه فشحذ الأولى وكشر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وابن أمه هجمة لا يعود منها إلا به أو بنفسه التي بين جنبيه . وانك لو سألت الجنديين المتقاتلين مـــا خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدي بكما انكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها لعرفت انهما مخدوعان عن نفسيهما وانهما

---

١ – متلف لماله للمبالغة .

ما خرجـا من ديارهما لا ليضعا درة في تاج الملك أو « نيشاناً » في صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول في أسواق الجهل ورأيت كلاً منهما قـد ثغر [1] له في رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى العقول فيفسدها وإلى القلوب فيقتلها ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها . هـذا باسم الوطنية وذاك باسم الدين .

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير أو في مغارات اللصوص أو بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب في كلمة وجاوز الحـد في تقديره فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الناس صدراً رحباً . ومورداً عذباً . وإني قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم إني لا أنكر وجود الفضيلة ولكنني أجهل مكانها فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري حتى ما أجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً ساطعاً .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباسهـا ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً . ومن لي بالوصول اليها في هذا الظلام الحالك والليل الاليل .

---

١ — كسر .

ان كلن صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحيـــاة وطيبها وغبطتها ونعيمها فسعادتي فيها ان اعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدقني الود واصدقه فيقنعه مني ودي واخلاصي دون ان يتجاوز ذلك إلى ما وراءه وان يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطمع شريف القلب فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به خلطاءه في محضره شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر شريف الحب فـــلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي أتمناها ولا أراها .

اني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها . وترن اطيارهـــا وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارهـــا وأزهارها انسياب الأفاعي الرقطاء . في الرمال البيضاء . وأرى أنامـــل النسائم تعبث بمنثورات الأوراق . عبث الهوى بالباب العشاق . وأسمع مـــا بين صفير البلابل . وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان ما لا تبلغ أوتار العيدان . فلا يسرني منظر ولا يطربني مسمع لأني لا أرى بين هـــذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدها .

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني وثقل حديثهـــا في مسمعي حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخيرها وشرها وسرورهـــا وحزنها .

---

١ ـــ الهجر الفحش .

ولولا بنيات صغار يفقدن بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت فاجد من الأنس بـه والسكون اليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت انسان فكدت أطـير

الحزين

ان كنت تعلم انك قد أخذت على الدهر عهداً ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك واطوارك والا يعطيك ولا يمنعك الا كما تحب وتشتهي فجدير بك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتـك مارب . أو تعذر عليك مطلب وان كنت تعلم أخلاق الأيام لي أخذها وردهـا . وعطاءها ومنعها . وانها لا تنام على منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فلتستردها وان هذه سنتها وتلك خلتهـا في جميع أبناء آدم سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطا بنصاله هام الجوزاء . ومن ينام على بساط الغبراء . فخفض من حزنك . وكفكف من دمعك ، فما أنت باول عرض أصابه سهم الزمان . ومـا مصابك بدعة خارقة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً . وقلبك سروراً . ومـا هي إلا كرة الطرف ان افتقدته فما وجدته . ولو انك اجملت في أملك. لما غلوت في حزنك. ولو انعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً . ما تظنه نجماً زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه . فلا يفجعك افوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر اليها نظر المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت في يده فذاك وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء ساعة الموت ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق . مـــا كانت ترحة الفراق .

المرأة الجاهلة

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته أمس في احدى زوايا الأندية العامة وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنه شعر بأن قلبه يتمشى في صدره وانه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه . ولو انه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضي في سبيله حيث شـــاء . فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان . ولا يفيق من الهموم والأحزان .

سألته ما بالك أيها الصديق . قال لا شيء . قلت أنت تكتمني ما في نفسك ولو عرفتني ما كتمتني . قال مـــا جهلتك مذ عرفتك ولكنني اعطيت الله عهداً ألا أشكو إلا من أرجو عنده البرء . وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برأ من دائي. وقلت هبني طبيباً والطبيب كما تعلم وان كان يشفي نادراً فانه يسكن غالباً ويعزي دائماً ، فانا ان عجزت من معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك على ان الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفس وإلا طار بالقدر طيران الهم بالصدر .

فانشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبرات . وتتقطعه الزفرات . ويقول زوجني أبي منذ سنين زوجة جاهلة غبية لا تفهم معنى الزواج إلا ان

فيه قضاء لبانتها [1] ، وترفيه عيشها ، وارضاء نفسها ، وهو يحسب انـــه قـد أحسن إلي بسليلة [2] الجـد وربيبة النعمة ومالكة الدور . وساكنة القصور . أجل انها ذات مال وفير . وخير كثير . ولكن ذهب غفر الله اني ما كنت اريد ان أكون تاجراً اكسب مالاً بل زوجاً أجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي لا تكذبني في خير ولا شر . ان اريد ان أجد في الزوجـة التي أتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى ارضاع طفلها ولبس ثوبها . على ان ثروتها مـــا كانت تقوم بحاجتها فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرهـــا وأخرى لسريرها. وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لا يغب [3] زيارتها ومؤنسات لا يفارقن مجلسها ولم تكن ممن أنعـــم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلهـــا في الحسن المجلوب . والجمال المكذوب وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فاستطيع ان اتناساها وأعد نفسي من العذاب تخيلاً وتقديراً بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب [4] المحيط بهـــا حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الاستانة يراقبن مواقع نظري ومواطىء

---

١ – اللبانة – الحاجة .

٢ – ابنة .

٣ – غب فلان القوم إذا جاءهم حيناً بعد حين .

٤ – الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح .

قدمي لتعلم أي مذهب قلبي ووجهه نفسي فتغار من الكوكب إذا رأتني أنظر اليه وتكاد تمزق الثوب الذي اتعشق لبسه وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب إذا رأتني اتاوه من آلام عشرتها أو أبكي لعظم مصيبتي فيها . وما هي بغيرة الحب ولكنها الاثرة [1] قبحها الله وقبح كل ما تأتي بـــه . وأكثر ماكان يغيظني منها انها ماكانت تفتح علي باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أخلو فيها بنفسي أو بكتابي فما أكاد انتفع بواحد منهما . فان سكت اغضبها سكوتي وان نطقت اغضبها حديثي . وان قرأت في كتابي ظنت ان المؤلفين ما ألفو الكتب إلا نكاية بالنساء لكي يتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به من محادثتهم ومسامرتهم . فكان الكتاب اعدى اعدائها عندها وابغض خصومها اليها . وجملة القول انها ما كانت تستطيع ان تتصور إلا ان الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها وانه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية [2] قصرها . واداة لهوها ولعبها .

فلا أقرأ ولا اكتب ولا اعطي نفسي حقاً من حقها ولا ابكر لمزاولة أعمالي ولا اسام احاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل إلا على نقد الأزياء ، واغتياب النساء ، فان وافيت رغبتهـــا فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق إلى وحش مفترس ، فـــلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص الا تهجم بها علي فكنت

---

١ ـ الاثرة اختيار الشيء والاستئثار به .

٢ ـ الدمية الصورة المصورة .

بين ألم رضاها وعذاب غضبها في شقاء حبب إلى الموت وبغض إلي وجه الحياة ، وبعد فقد رأيت ان العيش معها مستحيل فلم أر بدا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض أبغض إلي من المجد ولا أسمج في نظري من المال .

نفضت يدي من الزوجة الجاهلة ورحت افتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكونن لي من الشان في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الاول بعد ما صار إلي الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار فهيأ لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع منذ حل في جواري ان في بيته فتاة ما زال معنياً بامرها حتى خرجها [1] وأدبها فاصبحت نابغة مدرستها وسيدة أترابها علماً وفضلاً وتهذيباً وأدبا فما قنعت بالخير حتى خالطت أباها ثم خالطتها فاذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل .

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث ان اخطبني [2] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً وخيل إلي انني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو قليلاً قليلاً وسجلت [3] ان الدهر انشا يكفر بحسناته . ما أسلف من سيئاته . فاني لكذلك وقد اعددت للبناء بها عدته ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد وإذا بحامل البريد قد جاءني بهذا الكتاب فهاكه فاقراه فإن فيه بقية قصتي

---

١ – خرج الاستاذ تلميذه هذبه وعلمه .

٢ – يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه أي أجابه .

٣ – سجل القاضي قضى وحكم واثبت حكمه المسجل .

وشر نكبتي ثم ألقي إلي بغلاف معنون باسمه يشتمل الكتاب على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه فقرأت في الكتاب ما يأتي :

« علمت انك خطبت فلانة إلى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها ولعمري لقد كذبك نظرك وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً بها فانها لن تكون بعد أن صارت لغيرك ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها . فاعدل عن رأيك فيها وانفض يدك منها وان تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبري واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر إلى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » التوقيع :

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء فاحسست برعدة تتمشى في أعضائي وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت . وسوء ما رأيت إلا انني تماسكت قليلاً فاعدت اليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت ان اقول . ماذا يعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف لك سرها وظهرت لك حقيقتها . ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها إلى الاستغفار من حبها وحمد الله على ما الهم من صواب الرأي فيها . اما ان سالتني عن رأيي في زواجك بعد ذلك فاني لا أرى لك بعد اليوم الا ان تترهب وتتعزب [1] وان تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وادراك خبيثة نفسها « إلى الدير » .

---

١ – تعزب أي عاش عزباً لا يتزوج .

الهرة السجينة

استيقظت في فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء[1] بجانب الفراش وتتمسح بي وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً فرابني أمرها وأهمني همها وقلت لعلها جائعة فنهضت واحضرت لها طعاماً فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها عطشة فارشدتها إلى الماء فلم تحتفل به وانشأت تنظر إلي نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر في نفسي منظرها هذا تأثيراً شديداً حتى تمنيت لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ؟ وافرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلاً فرأيت انهـا تطيل النظر اليه وتلصق بي إذا رأتني اتجه اليه فأدركت غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب . فاسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها فعدت إلى فراشي وأسندت رأسي إلى يدي وانشأت افكر في أمر هذه الهرة واعجب لشأنها وأقول . ليت شعري هل تفهم الهرة معنى الحرية وما كان حزنها لفقدانها وتفرح بلقياها . أجل انها تفهم معنى الحرية وما كان حزنها وبكائها وامساكها

---

١ — المواء صوت الهر .

عن الطعام والشراب إلا من أجلها وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعياً وراء بلوغها .

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة والوحش المعتقل في القفص والطير المقصص الجناح من ألم الاسر وشقائه . بل ربما كان بينهم من لا يفكر في وجه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه. بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن يأنس به ويتلذذ بالآمه واسقامه .

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها ان يكون الحيوان الأعجم أوسع في الحرية ميداناً من الحيوان الناطق فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته . وهل يجمل ان يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان قبل ان يصبح زكياً ناطقاً .

يحلق الطير في الجو ويسبح السمك في البحر ويهيم الوحش ما شاء في الأودية والجبال ويعيش الإنسان رهين المحبسين محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد .

صنع الإنسان القوي للانسان الضعيف سلاسل وأغلالاً وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب جوهر حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقاً حذراً مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات

رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه فويل له ما أكثر جهله وويح له ما أشد حمقه .

وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه .

ليست جناية المستبد على أسيره انه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه انه أفسد عليه وجدانـــه فاصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وادرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعـــاً من أشعة الحرية ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدأ خلقه يمشي عرياناً أو يلبس لباســاً واسعاً يشبه أن يكون ظله تقية لفتحة الرمضاء ، أو هبة النكباء فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هكـــذا نظـام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبـه خوفاً من المرض أو الموت وأبوا ان يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وان يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي وان يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات .

لا سبيل إلى السعادة في هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره إلا أدب النفس .

الحرية شمس يجب ان تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة التماثيل المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، أو طارئاً غريباً وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

ان الإنسان الذي يمد يده يطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لأحد عنده .

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ولا يخبو أوراها حتى تهلك تلك الضلالة أو يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة وليس سلب الأجسام أرواحها باقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .

لا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات وانه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه . وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمبادىء وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في الأمم اعداءها وخصومها لأنهم يحاولون أن يرزؤها في ذخائر نفوسها ويفجعوها في أعلاق قلوبها .

« الدعاة الصادقون لا يبالون ان يسميهم الناس خونة أو جهلة أو ملحدين أو ضالين أو كافرين لأن ذلك ما لا بد ان يكون . »

الدعاة الصادقون يعلمون ان محمداً « ص » عاش بين أعدائه ساحراً

كذاباً فلما مات سيد المرسلين وان الغزالي عاش متهماً بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام وان ابن رشد عاش ذليلاً مهانـــاً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه ومات فيلسوف الشرق فهم يحبون ان يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتاً .

سيقول كثير من الناس وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً . ولا تسمع له قولاً . انه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته فيكون أجهل الناس وأحمق الناس .

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين وهذا هو الداء الذي ألم بنفوس كثير من العلمـــاء فاسكت السنتهم عن قول الحق وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهدايـــة والإشارة فأصبحوا لا عمل لهم إلا ان يكرروا للناس ما يعلمون . ويعيدوا عليهم ما يحفظون. فجمدت الأذهان وسكنت المدارك وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ اليه الهواء .

الجهل عشاء سميك يغشى العقول والعـــلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً . والألم لذة وسروراً .

لا يستطيع الباطل ان يصرع الحق في ميـــدان لأن الحق وجود والباطل عدم وإنما يصرعه جهل العلماء بقوته ويأسهم من غلبته واغفالهم النداء به والدعاء اليه .

محال ان يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد وإنما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة فيهز الأول هزة تباعد ما بين أحجاره ثم ينقض الثاني حجراً والثالث آخر وهكذا حتى لا يبقى فيه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ولا يجمل بالطبيب ان يحجم عن العمل الجراحي فراراً من ازعاج المريض أو خوفاً من صريخه وعويله أو اتقاء لسبه وشتمه فانه سيكون غداً أصدق اصدقائه وأحب الناس اليه .

وبعد فقليل ان يكون الداعي في الأمة حبيباً اليها إلا إذا كان خائناً في دعوته . سالكاً سبيل الرياء والدهاء في هدايته . وقليل ان ينال حظه من اكرامها وإجلالها إلا بعد ان تتجرع مرارة دوائه وتشعر بحلاوة الشفاء . بعد مرارة ذلك الدواء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء . وكظة الأرض والسماء . ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع لأنه لا يوجد بينهم شجاع .

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع ان يحمل في سبيل الدعوة ضراً أو يلاقي في طريقها شراً .

الاتحـــاد

ألمت بي في تلك الفترة الماضية كربـــة من تلك الكرب التي لا تزال تتعهدني كما تتعهد المحموم نوباته حيناً بعد حين كربة ما كفاها انها أمسكت قلمي عن الكتابة وفكري عن الحركة حتى حالت بيني وبـــين مطالعة الصحف واشراف على الأمة من نوافذها برهة من الزمان ثم ادركتني رحمة الله فاستفقت فاذا صخب ولجب ، وغوغـاء وضوضاء ، وأصوات ملء الفضاء ، وكظة الأرض والسماء ، فما هو إلا سؤال السائل واجابة المجيب حتى عرفت كل شيء .

عرفت ان الأمة الشرقية في موقف من أحرج مواقفها ، ومسلك من أضل مسالكها ، وانهـا بين مـاضغي الأسد وفوق ورق الظبي ، وان حوادث الدهر وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلها والتفت حولهـــا التفاف الحية بالعنق واحاطت بها احاطة الجامعة باليد والقيد بالرجـل ، فمثلها كمثل رجل احاطت النار بيته من كل جانب وعلقت بسقوفـــه وجدرانه ونوافذه وأبوابه فما هو بناج ان أراد نجاء ، ولا بباق ان أراد بقاء ، بل مثلها كمثل آخر ضل به سبيله واشتبهت عليه مسالكه في ليـلة داجية مدلهمة قد غابت كواكبها واستسرت نجومها فوقف وقفة الحائر

المضطرب يسمع العواء والزئير ، والضجيج والصفير ، فلا يعلم فيزداد ضلالاً ، أم يحجم فلا يجد مجالاً ، أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد .

عرفت ان الأمة الشرقية أصبحت لا تدري ما تريد ولا ما يراد بها ولا تجد من يرد اليها رشدها ولا من يمد يده اليها ليأخذ بيدها في هذا الظلام الحالك والليل المدلهم .

كثر رأساؤها ، وتعددت قادتها ، وتنوعت مذاهبهم واختلفت طرقهم ، واستحكمت حلقات الباس بينهم فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الأمة على شيء إلا على وضع حبل متين في عنقها قد أخذ كل منهم بطرف من عرفه يجذبه اليه جذبة المستقتل المستميت حتى بح صوتها وضاق صدرها ، وتعلقت أنفاسها ، وجحظت مقلتاها ، وجف ريقها وتحجر لسانها ، وهم ينظرون اليها نظرة الداعب اللاعب ولا أحسب انهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقاً لا لقاء من بعده إلى يوم يبعثون .

لو بعث ارسطو واضع علم المنطق من قبره وأراد ان يضع لهذه الأمة حداً تاماً جامعاً مانعاً لما استطاع إلا ان يضع لها هذا الحد (الأمة الشرقية هي التي تصدق كل ما يقال) ولقد عرف كل أولئك اللاعبين بها والعابثين بميولها وأهوائها منها هذا الخلق وتلك الطبيعة وكانوا قساة القلوب غلاظ الاكباد فنفذوا من تلك الآذان اللينة إلى تلك القلوب الطيبة فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بها لعب الصبي بكرته ويتلقفونها

واحداً بعد واحد فهي لا ترتفع حتى تتناولها الصوالجة ولا تستقر حتى تدفعها الاقدام ، كل يزعم انه صديقها وكل يزعم انه يدلها على عدوها والله يعلم انهم اعداؤها قبل الأعداء ، وخصومها قبل أكثر من الخصماء ، وان السماء بصواعقها ورجومها ، والأرض بزلزالها وبراكينها أعجز من ان تبلغ منها ما بلغوه ، أو تجني عليها ما جنوه .

فيا أيها الرؤساء والزعماء :

أي خير تطلبون لهذه الأمة بعد ان فرقتموها شيعاً ، وصيرتموها أحزاباً وقسمتوها على أنفسها ، وقطعتم أوصالها ووشائجها، والقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل وولده والرجل وأخيه والجار وجاره . والصديق وصديقه . حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله ، وحتى تناكرت الوجوه واستوحشت النفوس . وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب . لا ترى فيها إلا ناباً يقرع ناباً . وعيناً تنظر شذرا . وصدراً يغلي حقداً وقلباً يخفق خوفاً وحذراً .

كل غرض تزعمون انكم تسعون اليه لابلاغ هذه الأمة أمنيتها من السعادة والهناء لا قيمة له بعد ما اضعتم عليها من أغراضها إلا إذا كان الاتحاد قائدها اليه ودليلها عليه .

ليس هذا التنافر بين أفراد الأمة والتفرق بين جمعياتها حالة من الحالات الطبيعية التي لا بد منها ولا مناص عنها أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس وتسكن اليها القلوب وتغضي عليها العيون اجلالا للسماء . ورضاء بالقضاء . وإنما هي صنعة أيديكم . وجناية أقلامكم.

ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشانها وخليتم بينها وبين فطرتها ما كان يخطر لها ببال ان تتعادى وان تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب.

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الأمة الشرقية أن تفرق بين أوصالها وبين جامعتها وعجز الاختلاف الجنسي ان يؤثر في جامعتها تاثير امثاله من الجوامع الأخرى فكيف لا يعجز الاختلاف الديني والجنسي لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف وعظمتم منه ما حقر والححتم عليه الحاحاً شديداً حتى حولتموه إلى فتنة شنعاء . وغارة شعواء .

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الأمة ولا شفقة عليها فان قلوباً مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسى على ان ينفذ فيها سيف الضارب فضلاً عن قلم الكاتب وإنما أريد ان احدث الأمة الشرقية بكلمة لا أريد منها ان تاخذها مني عفواً ولا ان تسلم بها قبل انعام نظرها فيها وعرضها على عقلها . فذلك ما لا أحبه لها بل ذلك ما أنقمه عليها .

أيها الشرقيون :

اني لا أكتب اليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض ولا تحت أديم السماء أمة أحب إلي منكم وحسبكم ذلك الحب اني اسمع بالكارثة تحل بكم والنازلة تنال منكم فيشغلني من أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي وتجود عيني في سبيلكم على ما بها من جفاء وغلظة بما لا تجود بمثله في احرج مواقفها وأصعب مواطنها .

بهذا القلم يستمد مداده من هذا القلب المخلص لكم أدعوكم إلى الاتحاد والائتلاف وان تتبايعوا بين يدي الله والوطن على الحب والود والصفاء والإخلاص بينكم ولا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذاً ينفذون منه إلى قلوبكم ، فان طاف بكم طائف من شياطينهم فاعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم واحذروا ان تكونوا تبعة لرئيس أو لعبة في يد زعيم ولكن كل منكم زعيم نفسه ، ومسترشد قلبه ، فنفوسكم أرحم بكم ، وقلوبكم ، أصدق في نصيحتكم ، فان فعلتم ذلك نجوتم من ذل الانقياد ، وسلكتم سبيل الرشاد وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترى رأياً واحداً وتحس بإحساس واحد .

واعلموا ان ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهم من الأوهام الكاذبة . وخيال من الخيالات الباطلة . ولو رجعتم إلى أنفسكم وأصغيتم إلى أصوات قلوبكم لتبين لكم انه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو احرص من أخيه على حب الوطن وارادة الخير له .

سدد الله طريقكم ، وأنار لكم سبيلكم ، وافاض عليكم من رحمته واحسانه ما يفرج كربتكم ، ويكشف غمتكم ، والسلام .

الحجاب

ذهب فلان أوروبا وما تنكر من أمره شيئاً فلبث فيها بضع سنين ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليـــلة الماطرة ، وذهب بقلب تقي طاهـــر يانس بالعفو ويستريح إلى العذر وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنيها ، والنقمة على السماء وخالقها ، وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ، وذهب برأس كرأس التمثال المثقوب لا يملؤه إلا الهواء المتردد، وذهب وما على وجه الأرض أحب اليه من دينه ووطنه وعاد وما على وجهها اصغر في عينه منهما .

وكنت أرى ان هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى اوطانهم إنما هي اصباغ مفرغة على اجسامهم افراغاً لا تلبث ان تطلع عليه شمس المشرق فتمحوها كأن لم تكن ، وان مكان المدينة الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة إذا انحرف عنها ، زال خياله منها ، فلم أشأ ان افارقه ولبسته على علاته وفاء

بعهده السابق ورجـــاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقـــه ووسواسه وفساده وتصوراته ، وغرابة اطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصايب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجما مكتئباً فحييته فاوما إلي بالتحية ايمـــاء فسالته ما باله ؟ فقال ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عنـاء لا اعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا ادري مصير أمري فيه ، قلت واي امرأة تريد ؟ قال تلك التي يسميها الناس زوجتي ، واسميها الصخرة العاتيـــة القائمة في طريق مطالبي وآمالي ، قلت انك كثير الآمال يا سيدي فعن اي آمالك تحدث ، قال ليس لي في الحياة إلا أمل واحـــد ، وهو ان اغمض عيني ثم افتحها فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذه الأمة ، قلت ذلك ما لا تملكه ولا أري لك فيه ، قال ان كثير من النـاس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين تمزيقـــه عن وجوه نسائهم وابرازهن إلى الرجال يجالسونه كما يجلس بعضهم إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلمـــا حاول الإقدام على أمر جديد فرأيت ان اكون أول هادم لهـــذا البناء العادي [1] القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً وان يتم على يدي من ذلك ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية واشياعهـــا فعرضت الأمر على زوجتي فاكبرته واعظمته وخيل اليها انني جئتهـــا

---

١ ــ العادي كالقديم نسبة إلى قبيلة عاد .

بنكبة من نكبات الدهر او رزيئة من رزاياه وزعمت انهـــا ان برزت للرجال فانها لا تستطيع ان تبرز للنساء من بعد ذلك حياء وخجلاً ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربـه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد ان يعيش في قبور من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الأخرى ، فلا بد لي ان أبلغ أمنيتي، وان اعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين اما بشفائه أو بكسره .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هماً وحزناً ونظرت اليـه نظرة الراحم الرائي وقلت له اعالم أنت ايها الصديق ما تقول قال نعـــم أقول الحقيقة التي اعتقدها وادين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس النـــاس جميعاً حيث وقعت ، قلت هل تاذن لي ان أقول لك انك عشت برهة من الزمان في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم فهل تذكر ان نفسك حدثتك يوماً من الأيام وانت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟ قال ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ قلت أريد ان أقول لك اني أخاف على عرضك ان يلم به من الرجال ما ألم باعراض الرجال منك ، قال ان المرأة الشريفة تستطيع ان تعيش بين الرجال من شرفها في حصن حصين لا تمتد اليـــه الأعناق ، فتداخلني ما لم أملك نفسي معه وقلت تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء والثلمة التي يعثر بها في رؤوسكم فينحدر منها إلى قولكم ومداركم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها إلا في

قواميس اللغة ومعاجمها فان أردنا ان نفتش عنها فيقلوب الناس وأفئدتهم فانا لا نجدها، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فاذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال أتنكر وجود العفة بين الناس: قلت لا أنكرها لأنياعلم انها موجودة بين البله والضعفاء والمتعلمين ولكنني انكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط من بينها الحجاب وخلاوجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون ان تبرز نساؤكم لرجالكم أيها القوم .

أفي جو المتعلمين وفيهم من إذا سئل لم لم يتزوج ؟ أجاب نساء الأمة جميعاً نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من إذا عاد من أوروبا يحمل في محفظته أقل من عشر صور لصديقاته وماءة كتاب غرام منهن يتوارى عن أعين اصدقائه حياء وخجلا .

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلا ويخرج منه صهراً كريماً .

وبعد فما هذا الولع بقصة المرأة، والتمطق [1] بحديثها والقيام والقعود بامرها ، وأمر حجابها وسفورها، وحريتها وأسرها ، كانما قد قمتم بكل

---

١ – تمطق صوت بلسانه عند استطابة الطعام .

حق واجب للأمة عليكم في أنفسكم فلم يبق إلا ان تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل ان تهذبون نساءكم فان عجزتم عن الرجال فانتم عن النساء أعجز .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هـذا الباب موصداً فلكم ان فتحتموه على أنفسكم ويلا عظيماً ، وشقاء طويلا .

أروني رجلا واحداً منكم يستطيع ان يزعم في نفسه انه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها فاصدق ان امرأة تستطيع ان تمتلك هواها بين يدي رجل ترضاه .

انكم تكلفون المرأة ما تعلمون انكم تعجزون عنه . وتطلبون عندها ما لا تجدونه عند أنفسكم فانتم تخاطرون بها في معركة الحيـاة مخطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها . ومـا أحسبكم ان فعلتم رابحين .

ما شكت المرأة اليكم ظلماً. ولا تقدمت اليكم طالبة ان تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها . فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ ومـا تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

إنها لا تشكوا إلا فضولكم وإسفافكم . ولصوقكم بها . ووقوفكم في وجهها حيثما سارت ! وأينما حلت . حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا إلا ان تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلهـا ، فاوصدت من دونها بابها . وأسلبت أستارها . تبرمـاً بكم وفراراً من

فضولكم . فواعجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها .

انكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم . ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً، ويتدفق حرية واستهتاراً وتودون بجدع الأنف لوظفرتم هنا بهذا العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء [1] من الحجاب موكوء [2] فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً ، والعفة تتسلل منه قطرة قطرة ، حتى تقبض [3] وتضاءل ، ثم لم يكفيكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون ان تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة دهرها هادئة مطمئنة في بيتها راضية عن نفسها وعن عيشتها، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها فتبثها ذات نفسها، وتثبتها سريرة قلبها، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها ، وائتمارها بأمر زوجها . ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فان رأى النساء أن الحب أساس الزواج رأت ان الزواج أساس الحب ، فقلتم لها ان هؤلاء الذين يستبدون

---

١ — السقاء وعاء الماء من جلد السخلة .

٢ — اوكى القربة شد رأسها بالوكاء والوكاء الرباط .

٣ — تقبض يبس .

بامرك من أهلك ليسو باكبر منك عقلاً : ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها ، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لا بد لك ان تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها ان الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال صاعدة منحدرة حتى شغلها الحب عن الزواج .

وقلتم لها ان سعادة المرأة في حياتها ان يكون زوجها عشيقها وما كانت تعرف إلا ان الزوج غير العشيق فاصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت[1] وقلتم لها لا بد لك أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها والقيام على شؤون بيتها.

وقلتم لها أنا لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورنا فكان لا بد لها ان تعرف مواقع أهوائكم ، ومسارح أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون . فراجعت فهرس أعمالكم في حياتكم

---

١ ـ فاد بمعنى استفاد .

صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات [1] والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم . وتنزل عن محبتكم . ثم تقدمت اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً كما يعرض النخاس أمتــه في سوق الرقيق فاعرضهم عنها . ونبوتم بها وقلتم لها انا لا نتزج النساء العاهرات كانكم لا تبالون أن يكون نساء الأمــة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساءكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة ، وقد أباها الخليع . وترفـع عنها المحتشم . فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وهكذا انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعها وتمشت الظنون بـين رجالها ونسائها . فتحاجز الفريقان . وأظــلم الفضاء بينهما وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيهـا الرائي إلا رجـالاً مترهبين ونساء عانسات ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون . وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها نحن نعلم كما تعلمون ان المرأة في حاجة إلى العلم فليهذبها أبوها أو أخوهــا فالتهذيب أنفع لها من العلم . وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم، وإلى النور والهواء تبرز اليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب ، فان عجزنا عن ان ناخذ الآباء والاخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمــة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة باقدر على اصلاح

---

[1] ـــ استهتر فلان اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

نفسها من الرجل على اصلاحها .

أعجيب ما أعجب له من شؤونكم انكم تعلمتم كل شيء إلا شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركم ان تعلموه قبل كل شيء وهو ان لكل تربة نباتاً ينبت فيها ولكل نبات زمناً ينموا فيه .

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات معلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى حروف الهجاء .

رأيتم الفلاسفة ينشرون فلسفة الكفر بين الشعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها عن إيمانها فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء .

ورأيتم الرجل الاوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع ان يملك نفسه وخطراته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فاردتم ان تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الارادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية على رأس منحدر زلق فان زلت به قدمه مرة انحدر من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قراراتها .

رأيتم الزوج الأوروبي الذي انضجت القرون رأسه وازالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجة تخاصر من تشاء من الرجال . وترافق من تشاء . وتخلوا بمن تشاء فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد فاردتم من الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه .

ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية تستطيع في بعض مواقفها بين الرجال أن تحتفظ بعصمتها فاردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة ان تبرز للرجال بروزها . وتحتفظ بنفسها احتفاظها .

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه . أو ساعة غير ساعته . أما أن تاباه الأرض فتلفظه . واما ان ينشب فيها فيفسدها .

انا نضرع اليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الامة آمنات مطمئنات في بيوتهن ولا ترعجوهن باحلامكم وآمالكم كما ازعجتم من قبلهن فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف فلا دواء له فان ابيتم الا ان تفعلوا فانتظروا بانفسكم قليلاً ريثما تنتزعوا من صدور هذه الغيرة التي ورثتموهـــا عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا ان تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

*

فما زاد الفتى على ان ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية وقال تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها . فقلت له لك أمرك في نفسك وفي اهلك فاصنع بهما مـــا تشاء وائذن لي ان أقول لك اني لا أستطيع ان اختلف اليك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي لأني أعلم ان الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من استار بيتك عن وجه امرأة من أهلك في حضرتك تقتلني حياء وخجلاً .
ثم انصرفت وكان هذا آخر ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانـــاً هتك الستر في منزلة بين نسائه وأصدقائه، وأنه قد أصبح مغشياً لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود .

*

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورني ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فاحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ثم انطلق في سبيلي .

فاني لعائد إلى منزلي ليلة أمس وقد مضى الشطر الأول من الليل إذ رأيته خارجاً من منزل يمشي مشية المضطرب الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كانما هو يحرسه أو يقتاده فاهمني أمره ودنوت منه فسالته عن شانه فقال لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندى قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هـــذه الساعة سبباً وما أنا بالرجـــل المذنب ولا المريب ، فهل استطيع ان أرجوك صديقي القديم بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة فيوجهي هذا علني احتاج إلى معونتك فيما قد يعرض هناك من الشؤون ؟ قلت لا أحب إلي من ذلك ومشيت معــه صامتاً لا أحدثه ولا يقول لي شيئاً ثم شعرت كأنه يزور [1] في نفسه كلاماً يريد أن يقضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألم تستطع أن تتذكر لهـــذه الدعوة سبباً ؟

---

١ ـــ ازور الكلام في نفسه هياه .

فنظر إلي نظرة حائرة وقال ان أخوف ما أخافه ان يكون قــد حدث لزوجتي الليلة حادث مؤلم فقد رابني من أمرها . انها لم تعد إلى منزلهــا حتى الساعة وما كان ذلك شانها من قبل ، قلت اما كان يصحبها أحـد ؟ قال لا ، قلت الا تعلم المكان الذي ذهبت اليه ؟ قال لا ، قلت ومم تخاف عليها ؟ قال لا أخاف شيئاً سوى اني اعلم انها امرأة غيور حمقــاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليــه فوقعت بينهما واقعة انتهى حديثها إلى رجــال الشرطة ، وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المامور حتى صرنا بين يديه فاشارت إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ثم استدنى الفتى اليه وقال له يسوءني يا سيدي ان أقول لك إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة على رجل وامرأة في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة ان لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرهــا وأمر صاحبها فان كانت صادقة اذنا لها بالإنصراف معك إكراماً لك . وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة فاجرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة السجن فنظر فاذا المرأة زوجته ، وإذا الرجل أحد اصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ثم سقط في مكانه مغشياً عليه. فاشارت على المامور ان يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأمر بصاحبها إلى السجن ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا الطبيب فقرر انـه مصاب بحمى دماغية شديدة ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى

دنا الصبح فانصرف الطبيب على ان يعود متى دعوناه وعهد إلي بامره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وانتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصاً إلي هنيهة كانما يحاول ان يقول لي شيئاً فلا يستطيع فدنوت منه وقلت هل من حاجة يا سيدي ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي ان لا يدخل علي من الناس أحد ، قلت لن يدخل عليك إلا من تريد ، فاطرق هنيهة ثم رفع رأسه فاذا عيناه مبتلتان بالدموع فقلت ما بكاؤك يا سيدي ؟ قال أتعلم أين زوجتي الآن ؟ قلت وماذا تريد منها ؟ قال لا شيء سوى ان أقول لها اني عفوت عنها ، قلت إنها في بيت أبيها ، وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فلقدكانوا قبل ان يتصلوا بي شرفاء امجاداً فالبستهم منذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني رجل مريض مشرف وأنني أخشى لقاء الله ان لقيته بدمائهم وانني اضرع اليهم ان يصفحوا عني ويغتفروا ذنبي ، قبل ان يسبق إلى أجلي .

لقد كنت اقسمت لأبيها يوم اهتديتها [1] ان اصون عرضها صيانتي لحياتي ، وان امنعها مما امنع منه نفسي ، فخنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه .

إنها قتلتني ولكني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي اغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

---

١ – اهتدى الرجل امرأته جمعها اليه وضمها .

البيت بيتي والزوجـة زوجتي والصديق صديقي وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي فلم يذنب لي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام برهة فنظرت اليه فاذا سحابـة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت انها خرقت حجاب قلبه ثم أنشأ يقول .

آه ما أشد الظلام أمام عيني وما اضيق الدنيا في وجهي في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهمـا جالسان يتحدثان فتمتلأ نفسي غبطة وسروراً وأحمـد الله على ان رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجـة سمحة كريمـة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً ان ذلك الرجل كان يفخر بالأمس بذكائـه وفطنته ويزعم انه اكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم انـه ابله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين !

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله والغباوة في وجوه الأغبياء، ولعل الذين كانوا يطيفون بي ويتوددون إلي من اصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم وبين أنفسهم قواداً، ويسمون زوجتي مومسا وبيتي ماخوراً [1] .

١ – الماخور بيت الريبة .

فوا رحمتاه لي ان بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحـــدة ، ووالهفا على زاوية من زوايا قبر عميق يطويني ويطوي عاري معي .

ثم اغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى دنت بــه من فراشه فتركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على يده حتى علا صدر أبيه فاحس بـه ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه اليــه ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه كانما يريد ان يقبله ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعاً شديداً فانكفا على وجهه يبكي ويصيح وقال ابعدوه عني ، لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه أين مكانه واذهبوا به اليه ، لا البس العار في حياتي واتركه أثراً خالداً ورائي بعد مماتي ، وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت اليه وحملتــــه وذهبت به فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فانصت اليه واستعبر باكياً وصاح أرجعوه إلي فعادت به المرضع فتناوله من يدها وانشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم ومـا خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما اليك فقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمــة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن النية في جريمته التي اجترمها فاساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أو ولد الجريمة فاني قد سعدت بك برهة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً .

ثم احتضنه اليه وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو الرجل الكريم .

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف فارسلت وراء الطبيب وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة ياساً وحزناً .

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً فلم تبقي عين من العيون المحيطة به الا ارفضت كل ما تستطيع ان تجود به من مدامعها .

فانا لجلوس حوله وقد بدا الموت يسبل استاره السوداء حول سريره وإذا بامرأة متزرة بازار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم اكبت على يده الممتدة فوق صدره فقبلها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فان أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك تساله عن قولها انها وان كانت دنت من الجريمة فانها لم ترتكبها ، عني يا والدي ولدي وأسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية ففتح عينيه وألقى على وجهها نظرة باسمة كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

ايفون الصغيرة

ايفون هذه فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس ناظر مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات أولاده وأحفاده جميعاً وبقي هو من بعدهم وحيداً متوحشاً فانس بها حين وجدها انساً عظيماً وسماها « ايفون الصغيرة » لأنه لم يكن يعلم من أمرها شيئاً فاصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها فاصابها مرض لم يلبث ان قضى عليها فرثاها الكاتب بهذه القطعة البليغة .

ماتت وكانها لم تمت . ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها . يحسبها الرائي نائمة نوماً هادئاً لذيذاً ويخيل اليه انه يسمع صوت أنفاسها المتردد ويرى هبوط صدرها وارتفاعه .

أين صفرة الموت ونحوله ؟ وأين آلام النزاع ومضاضته ؟ وأين الغصون التي تخلقها الأوجاع فوق الجبين، وأين الدواء الزرقاء التي رسمتها يد الموت حول الجفون ؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعادلها رونقها وبهاؤها وأصبحت كأنما خلقت الساعة ولما تنبعث الروح من جسدها .

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمـــام المدفاة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها . وبهذا الفم الارجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصفورهـا أنشودة السعادة والهناء . وبهـاتين اليدين البيضاويتين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها العجوز .

أما اليوم فقد انقى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت .

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها (ساموت الساعة فآتوني بعصفوري أودعه) فاتوها بقفص عصفورها وعلقوه بإحدى قوائم سريرها فظلت تنظر اليه باسمة متطلعة وظل العصفور يلعب ويغرد تغريداً شجياً وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها نشيد الموت .

وهنا وقف الشيخ العجوز بجانب فراشها واجماً حزيناً مشرد اللب ذاهل العقل ومد يده إلى يدهـــا الضعيفة الوهنة التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته فأخذها ووضعها على صدره وظل على ذلك هنيهة كأنما يريد ان يمد سراج حياتهــــا الناضب بتلك الثمالة القليلة من الزيت الباقية في سراج حياته ليفتديها بنفسه ويفتدي نفسه من ان يراها تموت بين يديه ـ ثم التفت فجأة إلى اصدقائه الجالسين حوله وقال لهـــم ها هي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها وها هي الحياة قد عادت اليها. فنظروا اليه آسفين محزونين ثم نكسوا أبصارهم وأسبلوا مدامعه فاخـذ يقلب في وجوههم عيناً حائرة مشردة ويدور بنظراته ههنا وههنا كأنما يسألهـــم المعونة على أمره ومن ذايمين على القدر ويعتدي على المنايا ويعترض سهم القضاء بعد خروجه من قوسه .

وما هي إلا لحظة حتى شعر ان يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها .

إنا لله وإنا اليه راجعون ماتت ايفون الصغيرة ـ ماتت الطفلة الوديعة الجميلة ـ ماتت الفتاة الرزينة الصابرة . في سبيل الله نجم تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى . وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى . وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر . وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه جتى انتشر .

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتسامتها حتى في السنة التي تختفي فيها جميع الابتسامات . والحديقة التي كانت تقضي فيها بضع ساعات من ليلها ونهارها تلاعب أطيارها وتقطف أزهارها وتتعهد أشجارها والماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصير شعاع خديها ياقوتاً ومرجانا فدخلت جميعها منها وهيهات ان يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم .

كانت ايفون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير تحت الاحياء جميعهم ناطقهم صامتهم . فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منها لأبيها الشيخ العجوز . ولا تتودد إلى الشيوخ الكبار أصدقاء أبيها وجلسائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قرينها للمرة الأولى في حياته . ومما علموه قد اختلفت مع فتى أو فتاة من مدرستها لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها . والخبيث بعفوها وصفحها . ولم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولها وانكسارها ولمعانها الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل اليه انها قد

ألهمت ما كتمه الناس عنها . وأنها كانت تعلم لا تعيش في بيت أبيها الميت تحت وصاية جدها كما كانوا يقولون لها بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئاً . وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بهـــا اقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها؛ ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثهـــا أكثر الفتيات عن امهاتهن بل ابتسامة الحب والاخـلاص والعطف .

لذلك عجل الموت اليها لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا على ظهر الأرض زمناً طويلا .

. دقت أجراس الكنيسة تنعيها فلم تسمعها ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقاً ولهفة كما كان شأنها في حياتهـــا ، ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير . فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها . والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبهـــا أبنائهن وبناتهن وبكاها أكثر من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخ العجوز المسكين لأنها كانت كل دنياه فخسرها في ساعة واحدة . وظل كثير من الوقوف يرددون كرها فيقول أحدهم . طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياتـــه . ويقول الآخـــر . لقد دخلت الكنيسة ليـــلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية فعجبت لصلاحها

وتقواها . وتقول امرأة . لقد عثرت ابنتي يوماً من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض من الأحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل .

وتقول أخرى لقد كنت أراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها من الفضائل والمزايا حتى حانت ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها وحثوا عليها التراب . وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب وانصرفوا مطرقين أجمعين يقول بعضهم لبعض . وارحمتاه لها ، لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت اليها .

الناشيء الفقير

لي ولد وحيد في السابعة من عمره لا أستطيع على حبي. إياه وافتتاني به ان اتركه من بعدي غنياً لأب فقير وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لأني أرجو بفضل الله وعونه ورحمته وإحسانه انإاترك له ثروة من العقل والأدب هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب أحب ان ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه أو تكوين حياته لا على شيء آخر حتى على التي يتركها له أبوه ومن نشأ هـــذا المنشأ . وألف ان لا ياكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيد انه نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يطلع إلا ما في يد غيره . ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان .

أحب ان ينشأ رجلاً ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحيـــة العمل . وقلما يعمل العامل إلا بسابق من الضرورة ودافع من الحاجة وفرق بين الفتى الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شانها شرها وفضولاً وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته وتقويم أود حياته أحب ان يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة يصارع العيش ويغالبه ويزاحم العاملين بمنكبيه . ويفكر ويتروى ويجرب ويختبر ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها . ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها. ويعثر

مرة وينهض أخرى . ويخطىء حيناً ويصيب أحياناً . فمن لا يخطىء لا يصيب . ومن لا يعثر لا ينهض حتى تستقيم له شئون حياته .

ذلك خير له من ان يجلس في شرفـــه من شرف قصره مطلاً على العاملين المجاهدين يتمتع نظره بمرآهم كانما يشاهد رواية تمثيلية في أحـد ملاعب التمثيل .

أحب ان يمر بجميع الطبقات ويخالط جميع الناس ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء. وشقاء الأشقياء. ويسمع باذنه أنات المتالمين . وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته ان كان خيراً منهم . ويشاركهم في همومهم وآلامهم ان كان حظه في الحياة مثل حظهم ولتنموا في نفسه عاطفة الرفق والرحمة . فيعطف على الفقير عطف الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

اما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم أو يعطف على باسائهم وضرائهم . فان حاول يوماً ان يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب . فعل متفضلاً ممتناً . لا راحماً ولا متالما .

والألم هو الينبوع الذي تنفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الانساني والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه . بـــل هو معنى الانسانية وروحهـــا وجوهرها فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس . وكل مكرمة من مكرماتها وأصبح بالصخرة الصلدة الصماء أشبه منه بالإنسان الناطق .

احب ان يجوع ليجد لذة الشبع ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب

ليشعر ببرد الراحة . ويسهر لينام ملء جفونه أي انني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات كلمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراهـــا وأشقى الأشقياء اولئك المترهفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفذوها فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر فيتألمون من الراحة أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الالمـــام بمشتهيات غريبة لا يتفق مع البشرية ولا تدخل تحت حكمها تفريجاً لكربتهـــم وتنفيساً عن أنفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طول لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السآمـــة والملل يعالجون الداء بالداء . ويفرون من الموت إلى الموت .

أحب ان يكون غنياً بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الاصطلاحي أي ان يكون مستغنياً بنفسه عن غيره لا كثير المال والثراء . وما سمي المـــال غني إلا باعتبار انه وسيلة إلى الغنى وطريق اليه . وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب . فان أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدهم طمعاً في احرازه وأعظمهم مخاطرة بكرامتهـــم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء أصحاب المال والثراء . وان كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين أكثر منه في جانب الأغنياء المكثرين . ولا يزال

المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها يجمعه ولا يدري ماذا يريد منـــه ويعبده وهو لا يرجو ثوابه . ولا يخشى عقابه ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بانه لا ينتفع بقليله فضلاً عن كثيره وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجـــة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه فيرى الرؤوس أذناباً والأذناب رؤوساً والوسائل غايات والغايات وسائل فقل على عقـــله السلام . لا أكره ان ينشأ ولدي غنياً ولا أحب ان اعرضه لمخاطرة الفقر وآفاته ولكنني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليـــه الفقر .

أخاف عليه ان يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ويقدره فوق قدره ويعتبره الكمال الإنساني كله فلا يهتم باصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه وان لم يجـــد من حوله اصدقائه ومعارفه مرآة يرى فيها عيوبه وهناتـــه لأن عشراء الأغنياء متملقون مداهنون يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهـــم أخاف عليه ان تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ولا تغني بشيء سواها فيصبح رجلاً قاسياً صلباً ميت النفس والعواطف لا يرحم بائساً ولا يعطف على محزن . ولا يرثي لأمه ولا يبكي على وطن . ولا يشترك في شان من شؤون العالم العامة خيرها أو شرها . ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطـــاً بحظه أسقطت السماء على الأرض أو بقيت في مكانها أخاف عليه ان يحتقر العلم والفنون والآداب . ويزدري المواهب والعقول والفضائـــل والمزايا فيصبح عار

امته وشنارها . ووصمتها الخالدة التي لا تزال ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قرارتها لا يحترم غيره ولا يقيم لغير اربابه وزنـــا . ويخيل اليه ان من عداهم من فئات الناس لا شان لهم في الحياة بـل لا حق لهم في الوجود اخاف عليه ان تزوج ان ياتي الزواج إلا من غنية يرى انها هي التي تليق بمقامه ومنزلته . ومن اشترط الغنى في زوجة لا يستطيـع ان يشترط شيئاً سواه فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه اخاف عليه ان ولد ان لا يجد بين اوقاتـــه ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته فيتركه صغيراً في أيدي الخدم وكبيراً في أيدي عشراء السوء فيصبح نكبتـــه الكبرى في حياته . وعاره الدائم بعد مماته اخاف عليه ان يقضي أيامه ولياليه خائفاً مذعوراً مروع القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة ان خسر . ويضعفه فوت الربح ان فاته ويطير بنومه وهدوئه ويذهب براحته وسكونـــه هبوط الأســعار ونزول الأسهم وتقلبات الأسواق وخسران القضايا ومنازعات الخصوم والآفات السماوية والجوائح الأرضية ومـــا حزن الفقير الذي انفق آخر درهم كان بيده من حيث لا يعرف له طريقـاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله باشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه والذي كان يؤمل أن يتمم به مليونـه فلم يتح له . ومالية البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً ولا يجد ما يسد به رمقهم باطول من ليلة الغني الذي يسقط اليه الخبر بان سلعة من سلعه قد نفقت أو ان سهماً من أسهمه قد نزل ولقد رأيت بعيني من جن

وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق وسمعت كثيراً عن حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر منكبات مالية والخسائر التجاريـــة التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الاملاق بل ربما كان كل أثر عندهم انها تنقلهم إلى منزلة في غنى أدنى من منزلتهم الأولى اخاف عليه ان يصبح واحداً من أولئك الوارثين .

أخاف عليه ان يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بايديهم وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه فاندب حظي في قبري . واقرع السن على أن لم أكن قد فارقت هذه الحياة ولا مال فيها ولا ولد .

ولا أزال أذكر حتى الساعة انني مررت باحـــد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين متناقضين. رأيت غلامـــاً من الوارثين جالساً باحدى الحانات يمرح في نعمائه . وآخـر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه .

أما الأول فقد كان جالساً بين مائدتي في شراب وقمار تسلب الأولى عقله والأخرى ماله. وقد احاط به جماعة من الخلعاء المارين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميادينها. يضحكون لنكاته. ويؤمنون على أقواله. ويصدقون أكاذيبه : ويتحركون بحركته . ويسكنون بسكونـه وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ويصيح صياح الثعالب . أما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلاً . يفتح احدى عينيه من حين إلى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ويضم ركبته إلى صدره كلما أحسن بصوت مركبة ملوة بجانبه وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغمض ان خيل

اليه ان يداً تمتد اليه بالاحسان ولا يد هناك ولا احسان رأيت هـذين المنظرين الغريبين المتباينين فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان . عاطفة البغض والاحتقار للأول . وعاطفة الرحمة أو الشفقة على الثاني وقلت في نفسي لو كان لي ولد وكان لا بد له من ان يكون أحد هذين الغلامين . أما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً . أما المتشرد النائم من تحته يسال الناس لقمة فلا يجدها لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين على ان أراه بين جماعة الوارثين لأني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحماً يحسن اليه ويستنقذه من شقائه ويأخذ بيده من طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فاني لا أرجو له شيئاً .

ان للرحمة طيش كطيش القسوة والشدة وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفذ أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائباً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شان تربيتهم وتعليمهم ضنا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة واثقالها . فاذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشان فيه أكثر مما يكون لهم لجماعة الحمالين من الشأن في الأثقال التي يحملونها من مكان إلى آخر . فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينتهوا فاذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين صفر الأكف فارغي الجيوب مطرقي الرؤوس لا حول لهم ولا حيلة . قد اضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم وهدموا في عام واحد أو عامين قرناً كاملاً مجيداً من علاه إلى أسفله . ولا يعلم الله ماذا يكون

شأنهم بعد ذلك .

ولو أنه كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم اشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذه العاقبة الوخيمة . واشفق عليهم من هذا المراث المشئوم .

يقولون ان الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا اقول اننا إذا استطعنا ان نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وإلا ينخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا ان للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً فان كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والعيارون وقطاعوا الطريق فبين الأغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون والمداهنون والمهالثون . واصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم والتجار الذين يسرقون من الأمة في شهر واحد باسم الحرية التجارية مالاً يسرقه جميع لصوص البلد وعياروه في سنة كاملة والقوم والأوصياء الذين يرثون الذكاة من دون وارثيها ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها وفي المحافظة عليها والسماسرة الذين يسرقون الأسواق بأجمعها . والمرابون الذين يختلسون الثروات باكملها .

على ان جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغني فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكليهم عليها وحيازتها عدا الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق . ولا قاطع طريق. ولا يسرق السارق ولا ينهب الناهب ولا يلص اللص الا جزاء من حقه الذي كان يجب ان يكون له لو كان للمال زكاة وللرحمة سبيل إلى الافئدة والقلوب

افقتح الأغنياء المدارس ولبنوا الملاجيء ولينشئوا المصانع والمعامـــل للعاطلين والمتشردين وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميـدان الحياة بالمساعدة والمعونة فان وجدوا بعـــد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد أن أقول ان الغنى علة فساد الأخلاق ولا ان الفقر عـــلة صلاحها ولكن الذي أستطيـع ان أقوله عن تجربة واستقراء أني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين .

أن العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات المدنية الحديثة باجمعها حسنة من حسنات الفقر . وثمرة من ثمراته وما المداد الذي كتبت بـــه المصنفات ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة . وما الاراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شان المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا ابخرة الأدمغة المحترقة بغيران الهموم والأحزان وما تفجرت ينابيـع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة . والأفئدة الحزينة . وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة ومـــا نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء أو حكماء وأدباء إلا في مهود الفقر وحجور الاملاق . ولولا الفقر ما كان الغنى ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

ان المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحـــد ولا يلوى مقبل على مـــدبر يسدون ويسرعون . ويتصادمون ويتخبطون . ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض . كانهم هاربون

من معركة أو مفلتون من مارستان. ودماء الشرف والفضيلة تسيل تحت أقدامهم . وتموج موج البحر الزاخر . يغرق فيــه من يغرق . وينجو من ينجو .

اتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في ادمغة الناس خاصتهم وعامتهم علمائهم وجهلائهم ولم هــذه الحروب القائمة والثورات الدائمة . والنزاع المستمر بين البشر جماعــات وأفراد وقبائل وشعوباً ممالك ودولاً .

لا سبب لذلك سوى شيء واحد . وهو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المال أساس السعادة وميزانها الذي توزن به فهم يسعون اليــه لا من أجــل القوت والكفاف كما يجب ان يكون بل من أجــل الجمع والادخار والمال في العالم كمية محددة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتخاطفونه ويتناهبونــه ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ويسمون عملهم هذا تنازع الحيــاة أو تنازع البقاء وما هو بالتنازع ولا التناظر إنمــا هو العراك والقتال . والدم السائل . والعدوان الدائم . والشقاء الخالد والعلاج الوحيد لهــذه الحالة المخيفة المزعجة وهو أن يفهـم الناس أن لا صلة بين المــال وبين السعادة . وان الافراط في الطلب كالتقصير فيــه . وان سعادة العيش وهناءه وراحــة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحــد وهو الاعتدال .

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً ان أقضي للناشيء الفقير على الناشيء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ومن ذا الذي يجامـــل الفقراء ويحابيهم وان أقول للناشيء صبراً يا بني وعزاء فانك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل واجتهد . ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ولا تحصد غير الذي زرعته يدك فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك والزمن خـــير مؤدب ومهذب . وان ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون . ففيهـــا علوم الحياة باجمعها . وان كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومـــة ومناصبتها غنماً كما يعدها القعدة العاجزون فيها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التي ليس لهـا مثل عقلك وفطنتك وحليتك وقوتك . فان الله لم يخلقك في هـذا العالم ولم يبرزك في هذا الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأ ولا تصدق ما يقولونه لك من ان الناشيء الغني أسعد منك حالاً وأوفر حظاً وان راقك منظره وأعجبك ظاهره فلكل نفس همومهـــا وآلامها وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي . ونفس هادئة ! . وقلب شريف وان تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات مجهودك ومساعيك تنمو بين يديك وتترعرع فتغبط بمرآها اغتباط الزراع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده وتعهدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه .

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف أن رجال الشرطة عثروا على جثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً .

تلك أول مرة سمعت بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر وهـــذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المرأة المسكينة في مغارة منقطعة أو بيداء مجهل فتفزع في أمرها إلى قضاء الله وحـــده بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفي ملتقى غاديهم برائحهم ولا بد انها مرت قبل موتهـــا بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ووقفت في طريق كثير من الناس تسالهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد اليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها فما أقسى قلب الإنسان وما أبعد الرحمة في فؤاده وما اقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى الجبل في ساعتها الأخيرة لعلها ظنت ان الصخرة ألين قلباً من الإنسان .

فذهبت اليه تبثه شكواها ، أو ان الوحوش أقرب منه رحمة فجاءته

تستمنحه فضلة طعام ، وأحسب لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها . ولو ان الوحش ألم بسريرة نفسها لرثي لهـــا وحنا عليها لأني لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع ان يملك نفسه ودموعه أمـــام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتقي بها أحد في أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم انها جائعة فيرحمها .

ألم يكن لها جار يسمع انينها في جوف الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره .

أقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها .

اللهم لا هذا ولا ذاك فالمال والحمد لله كثير والخير أكثر منه ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون ولكن الأمة التي ألفت الا تبزل معروفها إلا في موقف المفاخرة والمكاثرة والتي لا تفهم معنى الإحسان إلا انه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات وفي العهد الذي تسجل فيـــه حسنات المحسنين على صفحات الصحف تسجيلاً يشهده أربعة عشر مليوناً من الشهود أما اليوم وقد أصبح كل

امرىء موكولاً نفسه ومسئولاً أمـــام ربه وضميره أن يتفقد جيرتـــه وأصدقاءه وذوي رحمة ويتلمس موضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدها فهام الفقراء يموتون جوعاً بين تلال الرمال وفوق شقاق الجبال من حيث لا رحمة ولا معين لقد كان في استطاعـــة تلك المرأة المسكينة ان تسرق رغيفاً تتبلغ به أو درهماً تبتاع به رغيفاً فلم تفعل لأنهـــا امرأة شريفة تفضل ان تموت بحسرتها على ان تعيش بعارها فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها واعفائها .

الفهرس

المكتبة العلمية الجديدة

بيروت